

مجموعة عربية ١٠٠٪

موسكو أو بكين

بقلم: الكسندر متكساس

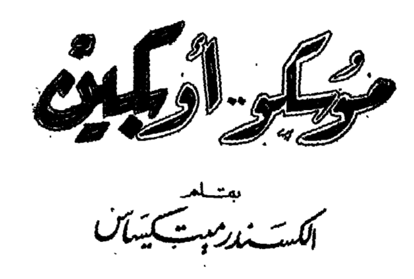
ترجمة: محمود وصفي

مراجعة: محمود حسن حلمي

Moscow
or
Peking?


جامعة الإسكندرية
المكتبة

كتب سياسية



موسكو أو بكين

بقلم

الكسندر ميتكياس

ترجمة محمود وصفي

مراجعة محمود حسن حلمي

الفصل الأول

وجهـا لوجـه

كانت مكانة الصين منذ عشرين عاما شيئا نسبيا : يعــود الى حضارة عمرها آلاف عديدة من السنين . والصين اليــوم دولة عالمية كبرى . ولم يحـدث فى تاريخ الصين الطويل أن تدخلت هذه الدولة فى شئون أوربا . وللصين اليوم يد مباشرة فى توجيه بعـض دول أوربا ــ أى الدول التى تســير فى فلك الاتحــاد السوفيتى ..

وهى تتدخل فى مسائل مثل برلين وبودابست . وقد تغلغلت عن طريق أزمة السويس الى بلدان الشرق الاوسط . وتهتـم الصين أيضا بمشاكل الســودان ، وبذلك وصـلت الى قلب أفريقيا وأنشأت خطوط مواصلات مع كينيا وغانا وجنوب أفريقيا والـكونغو ..

وان دخول الصين الى المسرح العالمى لا يؤثر على العــالم الغربى فى الوقت الحاضر على الاقل . ونجد توضيحا لهـذا فى الخطابات القليلة التى ألقاها ليوشاوتشى ــ فيلسوف الشيوعية الصينية ــ وفى المهام غير الرسمية التى يقوم بها مبعوثو بكين . وتنظر موسكو الى هذا التعدى على أنه تدخل فى مبـدأ ينبغى أن يكون قاصرا على العمل الدبلوماسى والدعاية من قبل الاتحاد السوفيتى وحده . ولا تراعى جمهورية الصين الشعبية قواعد

الفكر الشيوعى . وهى تحاول الهيمنة على الاتحاد السوفيتى وتملى ارادتها على الجميع .

ونلمس الثقل الجديد لسياسة بكين فى مناطق آسيا الواسعة الارجاء وان دول الحياد فى آسيا والدول المرتبطة بحلف جنوب شرق آسيا تتردد وتعيد تنظيم نفسها وفق التغييرات التى تحدث فى مواقف الصين وخططها .

وقومية بكين اشد من تلك التى عبرت عنها حكومة فرموزا .. فهى قومية اشتراكية شيوعية وهى تجابه استعمار الغرب «باستعمارها» بقوة وحماس ، وتسعى جمهورية الصين الشعبية الى احتلال المركز الذى كانت تحتله اليابان خلال سنوات الحرب العالمية الاخيرة ، وهى تتبع كافة الوسائل التى فى متناول يدها ؛ ولا تعبىء « اولئك » المخلصين لمذهبها الفكرى فحسب بل تعبىء ايضا الصينيين «الرأسماليين» الذين يستوطنون جنوب شرق آسيا كى تستغل وتقيم وتطور نفوذها الاقتصادى والسياسى ..

ومنذ وفاة ستالين وانهيار الستالينية ــ ذلك الجزء الميت من الماركسية ــ اللينية ــ والاتحاد السوفيتى يواصل فقدان مكانته ونفوذه فى الصين ولان الاخاء الفكرى بين موسكو وبكين ليس عبارة لا معنى لها ، فانه يجب على الاتحاد السوفيتى والصين أن تكونا قد جربتا مواقف ثورية متشابهة فى آن واحد وفى نفس الظروف ــ وواجهتا نفس الاخطار .. ولكن الامر لم يكن كذلك .

وفى اعقاب الحرب العالمية الثانية وانتصار روسيا على هتلر ــ وفوق كل شىء بعد نهاية ستالين ــ مر الاتحاد السوفيتى بفترة خمول واحس بحاجة الى الراحة الفردية والامن . ولم تظهر هذه العبارة علنا وبقوة ، ولكن المائتى مليون روسى لسبوا هذا الموقف الجديد الذى اعترفت به سياسة خروشوف الانتهازية المعادية لستالين . وفى الوقت نفسه ، كانت الصين تشيد دولة ثورية

خاضعة لديكتاتورية ماوتسى تونج ، وقد بدأت هذه الدولةباجراء اصلاح شامل في الاحوال الاجتماعية .

وقد اكتشف الروس والصينيون وخيبة الامل تغمـــرهم ان فترة أربعين عاما كانت تفصلهم بعضهم عن بعض . وبالرغم من تصريحات المسئولين التى تتسم بالتفاؤل وتوحى بالثقة فان الشيوعية فى البلدين كانت تناقض بعضها البعض . وكان لابد على أحد الطرفين أن يفسح المجال للاخر من أجل تأمين الظـروف للنجاح الايديولوجى وكان يبدو لاول وهلة أن الصين — بصفتها أحدث عمرا يجب أن تعترف بحق السوفيت فى قيادة الركب . . ولكن ماوتسى تونج لم يكن يرى هذا الحل الذى كان يبدو معقولا فى نظـر موســكو . .

ومثلما حدث منذ مائة عام للقيصر نيقولا الاول الذى مات من الغم عقب هزيمته فى حرب القرم ، فان ستالين كان يعرف مصدر حزنه ، فقد خسر السباق ليس بعد أن أحرز العالم الرأســمالى بعض النصر ، ولـكن نتيجـة انتصـــار ماوتسى تونج وقد أدى انتصار الشيوعية فى بكين الى تضاؤل فرص روسيا فى ابقـــاء الصين تحت قبضتها .

وقد راقب ستالين عن غير رغبة منه استيلاء ماوتسى تونج على مقاليد الامور فى الصين . وقد استخدم الديكتاتور السوفيتى المناورات عدة سنوات بدون حنكة بين تشيـــانج كاى تشيـــك وماوتسى تونج ، بين الشيوعيين فى كومنتانج وفى بينان ، ولم تكن هناك فائدة لستالين فى وضع نهاية لهذه اللعبة المزدوجة التى كانت تتلاءم تماما مع مصالح روسيا الدائمة . ولم ينس ستالين — الذى لم يثق بأحد أن عليه الا يثق باصدقائه . وكان يعلم أن الشيوعيين الصينيين « اصدقاء له » وانهم سيعملون على تقوية الصين الضعيفة وادخالها فى مضمان الدول الكبرى وسيطالبون

بنصيبها الاكبر فى مكاسب الشيوعية . وفى هذه الحال لـ يبقى ستالين وموسكو الزعماء الوحيدين للعالم الشيوعى

وكان على روسيا أن تواجه واقع الامور بعد عام ١٩٤٩. وكانت شكوك ستالين لها مايبررها . وكان سير الاحداث وخاصة عقب موت ستالين يؤكد هذه الشكوك تماما . وكان ستالين يستطيع الى حد ما أثناء حياته أن يجابه ماوتسى تونج . ولكن خلفاء سيد الكرملين فقدوا السيطرة على زمام الموقف . وكانوا مجرد صبية يواجهون ماوتسى تونج الساحر الصينى .

ولم يتردد الصينيون ، وبدأوا السباق دون ان يكون فى نيتهم الخضوع للروس . وكانوا يريدون أن يكونوا سادة بلادهم، وان يسيطروا على الشيوعية الدولية وان يفرضوا انفسهم على العالم .. وقد أرغموا الروس بذلك على السعى نحو التقارب مع الغرب ، ذلك التقارب الذى لا يمكن تحقيقه دون مساومة وبدون تضحيات كبيرة ..

ولم يكن للتضامن الايديولوجى مكان فى فترة كفاح ماوتسى تونج ضد الكومنتانج أو حتى ضد اليابانيين . وكان من العبث بالنسبة لموسكو أن تستخدم هذا العذر لترغم الصين على طاعتها والانصياع النسبى لامرها والخضوع لها .

وكان التلامذة يميلون الى الاستفادة من دروس سادتهم ولكن من أجل منفعتهم فقط ودون نية للاعتراف بصواب هذه الدروس. وكان على الدعوتين . الشيوعيتين أن تراقبا بعضهما البعض قبل أن تتقابلا معا . وكان الامر اكثر من مسألة فكرتين متعارضتين لايدولوجية لم تكن تستطيع ايجاد الجو والصيغة المثالية للنجاح ولم يكن هناك أحد لتحكيمه فى الامر . فقد كانت موسكو وبكين هما أطراف القضية وقضاتها .

وجاء صدى هذه المعركة . فقد عرف الروس فجأة الهدوء الداخلي من حيث عدم وجود من يجرؤ على التكهن بمداه خشية ان تحوطه الشكوك ، ولم يكن خروشوف يريد مكافحة الاستياء الداخلي او التعرض للضغط من شيوعية الصين التى تريد آن لتتجاوز حدودها . لان موسكو لم تنجح فى ابقاء الصين تحت سيطرتها فحسب بل كان لديها ما يدعوها الى ان تخشى من ازدياد قوة الشيوعيين الصينيين على نظرائهم الروس .

ولاتقاء هذا الخطر ، قرر خروشوف بدء برنامج السنوات السبع متجاهلا النظرية الايدلوجية والتمسك بالعقيدة الشيوعية . وأخذت رأسمالية الدولة فى روسيا طابع البرجوازية القوية . هكذا اعترف الكرملين بحقيقة واقعة . ولم يكن من الممكن مكافحة السوق السوداء الروسية الا بنجاح مشروع السنوات السبع الذى سيجلب على روسيا منافع العالم الرأسمالى . وكان الهدف الاسمي هو تحسين مستوى المعيشة الروسى كى يصل الى مستوى المعيشة الاميركى ويجاوزه ..

وكان من العسير بالنسبة للجماهير الروسية ان تقف مكتوفة الايدى حيال هذا المشروع الايجابى . وبالفعل ، كانت هذه الخطة اول محاولة للحكومة منذ عام ١٩١٧ فى سبيل تحسين احوال المعيشة في الاتحاد السوفييتى .

ولكن بينما كان خروشوف يعد المواطنين الروس بالعصر الذهبى بعد ـ أربعين سنة من القيود المختلفة وبذلك يستبعد كل احتمال لتدخل الصين الشيوعية فى شئون الشيوعية الروسية الداخلية ـ فان بكين من جانبها ـ كانت تفكر فى شق طريق للشيوعية والاسراع بأقصى ما تستطيع فى هذا السبيل .

وانفصل المبدآن الشيوعيان ، وأسدل ستار حديدى بينهما . وكانت اقتصاديات البلدين تختلف من حيث الاساليب كما تختلف من حيث القاعدة ولم يكن باستطاعة الكرملين ان يبدى اقل اعتراض

وقد واجه حقيقة القوة الصينية واستعاضت روسيا عن ذلك بالتنديد بكبش فداء آخر هويوعوسلافيا التى يتزعمها تيتو . وكان تيتو يستطيع أن يتحمل ذلك ، وقد استفادت الصين من هذا .

ولم تستطع البيانات الرسمية عن الاخاء الصيني ــ الروسي أن تخفي حقيقة العلاقات بين البلدين . وقد أعرب الصينيون بسرعة عن استيائهم من انحرافات عديدة لموسكو . وقد كافح الشيوعيون الصينيون خمسا وثلاثين سنة دون الاهتمام بدقائق النظرية الماركسية . وقد اكتشف الصينيون انهم القائمون على حراسة تعاليم الماركسية ــ اللينينية الخالصة بعد أن رأوا خيانة الروس لهذه التعاليم .

وكان اهتمام ماوتسى تونج يدور حول تأليف كتلة صينية ــ سوفيتية شعارها ، الجميع من أجل الفرد والفرد للجميع ، الاتحاد قوة ، وكان على روسيا من أجل تحقيق هذين الشعارين تضحى بما تملكة من أجل الصين . وهكذا مع مرور الزمن ، تستطيع الكتلة ان تجابه العالم وحدها ، ويستطيع الشيوعيون فى العالم ان يستعيدوا الحيوية التى قضت عليها أعمال ستالين الوحشية القصيرة النظر .

ولم تكن روسيا تستطيع مسايرة هذا المطلب الثورى . فقد أضناها ما قدمته من تضحيات خلال ثلاثين عاما . وكان من المستحيل على خلفاء ستالين ان يقنعوا الروس مرة أخرى بالخضوع للحرمان الشديد من أجل جعل العالم شيوعيا عن طريق توحيد قوى الصين مع روسيا .

ولمنع حدوث اضرابات كبيرة عن العمل كانت تهدد الحكومة السوفيتية سارع الكرملين الى العمل لتجنب ما هو أسوأ ــ ولم يواجه ماوتسى تونج هذه المشكلة . فان جمهورية الصين الشعبية كانت ثورية فى وجه الاتحاد السوفيتى الذى أصبح محافظا . وكان كل منهما يسبب للاخر حرجا شديدا .

ولم يعد الروس يجدون أن التضامن الايدلوجى مشروع مجز عندما يتعلق الامر باستخدامه مع ستمائة مليون مواطن من المحرومين الصينيين الذين يتوقون الى المشاركة فى مكاسب مائتى مليون روسى .

ووجدت موسكو ان نسبة الصينيين للروس وهى ٣ لواحد كبيرة جدا وجرى استعراض جميع الامور فكانت أوربا أقل خطرا واضرارا ومن الممكن استخدام المناورات فيها أكثر من الصين . واكتشف الكرملين التضامن العنصرى ـ مع العنصر الابيض . ومعروف أن هناك أقليات عديدة فى الاتحاد السوفييتى ولكن مجموع أفراد هذه الاقليات ضئيل وحتى المغول والتركمان والازبك كانوا يعلقون على روابطهم بروسيا اهمية أكبر من روابطهم مع اجدادهم الاسيويين .

واما بالنسبة لسيبريا التى تبلغ مساحتها ٧ر٥ مليون ميل مربع وسكانها ٢٠ مليون نسمة فقط ، فقد اصبحت محور الاحتكاك الرئيسى فى العلاقات الصينية الروسية .

فقد كانت سيبيريا هى الجزء الكبير من الاراضى العامة التى يعتبر ما وتسى تونج أن له حقا فيها . فقد كان يجب ان تصبح سيبيريا مشتركة بين روسيا والصين وبذلك تستطيع ان تغير وجه الاقتصاد الصينى وتقدم للجماهير الاسيوية من الصينيين وغيرهم ـ الارض المثالية التى يمكن ارسال الملايين اليها للبحث عن العمل والطعام ، ولم تثر حكومة بكين هذه المشكلة رسميا . ولكن بعض المسئولين الصينيين كانوا يشيرون اليها .. وتجنبت موسكو الرد على هذا الامر . وازدادت شكوك روسيا فى هذه الناحية .

وعقب فترة قصيرة من التفاهم اصبح الصينيون موضع شك مثل البلدان الغربية ان لم يكن أكثر . فكان الروس يعتبرون

البلدان الغربية أقل خطرا نسبيا لان الشيوعية كانت توحي بقليل من المخاوف ومن هذه الناحية كان الروس ينظرون الى مسألة بودابست على انها أسوأ كارثة ممكنة . ولم تكن محاولات خروشوف لازالة اثر مغالاة ستالين مجدية . وكان لابد من محاولة ثانية للاتصال بالدول الغربية .

وفى بداية عام ١٩٥٩ ظهر ان الموقف قد تحسن بشكل ملحوظ ، فقد كانت العلاقات بين روسيا والغرب طيبة .. وقامت محاولات مستمرة من قبل الكرملين لايجاد تسوية عامة للمنازعات بين الشرق والغرب ولكن قلة صبر خروشوف وجدت بعض القلق ، وكانت هناك حاجة لتأمين السلام فى الغرب بأفضل الشروط قبل معالجة مسألة الصين بمزيد من الثبات والهدوء .

وكانت بكين ترى ان الكرملين يتخذ استعدادات تتسم بالتسرع لهجر الركب الشيوعى بسرعة . وكانت العلاقات بين موسكو وبكين تشبه العلاقات التى كانت بين روما وبرلين عقب سقوط موسولينى عندما أكد المارشال بادوليو رئيس حكومة ايطاليا الجديدة حينئذ استمرار التحالف الايطالى الالمانى ومواصلة جهود البلدين فى الحرب لانزال الهزيمة بالعدو المشترك . ولكن الحقيقة هى ان المارشال بادوليو كان فى نفس الوقت يرسل مندوبيه الى البرتغال لمفاوضة العدو المشترك .

وكان الشيء ذاته يحدث فى موسكو . فقد ضاعف الكرملين اظهار دلائل الصداقة الابدية مع الصين بينما كان فى نفس الوقت يتبع سياسة لا تتفق مع المحافظة مع تلك الصداقة . ووجدت الصين نفسها مرة ثانية فى عزلة حتى بالرغم من اشتراكها فى مؤتمر الاقطاب .. وبالرغم من ان مركزها كان قويا من الناحية الديبلوماسية وان سياسة التقارب السوفييتية حيال الغرب كانت تدل على التخلى عن الموقف الثورى فى العالم وقد أزعج ذلك الصين التى انهمكت فى تجربة خطيرة هى نظام الكوميونات .

وكان باستطاعة الصين ان تتبع الاتحاد السوفيتي دون جدال لانقاذ موقفها كما كان في مقدورها التراجع كي تمارس شيوعيـــة انعزالية . وكان باستطاعتها أيضا أن تبحث من جانبها موضوع التقارب ان لم يكن مع الغرب فمع اليابان على الاقل .

ولم يكن اقتصاد روسيا والصين يكملان بعضهما البعض . فقد كان البلدان يملكان ثروات لا تنضب ، ولكن مع ان القوة الصناعية الروسية ضخمة فان قوة الصين الصناعية كانت ضعيفة نسبيا وكان الامر يحتاج الى اربعين عاما من الجهود الجبارة والتضحيات الشخصية لخلق كيان صناعي يضارع الكيان السوفيتي .

وبالرغم من المعونة الروسية والنبوغ الكبير فان الصين بحاجة الى وقت طويل لتصل الى ما حققه الروس من تقدم .

ومن الناحية الاخرى ، فقد كانت اليابان متقدمة صناعيا ولكنها كانت تفتقر الى المواد الخام والثروات المعدنية .

وكان من الممكن قيام ثورة اقتصادية في آسيا لو وجدت اتفاقية بين بكين وطوكيو لانشاء سوق مشتركة تضم ثروات وفرص الصين مع قوة اليابان الصناعية . وكان للصين آنذاك صناعة ضـــعيفة لا تتناسب مع الدول الكبيرة . وأما اليابان فكان لديها صناعة ضخمة بينما هي بلد صغير . وعدم التناسب هذا كان من الممكن ان يصبح توازنا مثيرا للاعجاب لو وجدت الدولتان وسائلهما .

ولم تكن للخلافات المذهبية أهمية كبرى . واذا تعاون الاتحاد السوفيتي اقتصاديا مع الغرب مع مرور الزمن فليس ثمة مايمنع الصين من ان تفعل ذلك مع اليابان . ففي أحد الجانبين يقبـــع العنصر الابيض ــ بما فيـــه الروس وفي الجـــانب الاخر يقبع الاسيويون بما فيهم الصينيون .

وقد كانت تجربة الكوميونات في الصين منـــاورة سياسية اكثر من كونها هدفا اقتصاديا يجب الوصول اليه مهما كان الثمن . وكانت النتائج الاولى لخطة الـكوميونات سلبية . وكان هذا الفشل من

الناحية الاقتصادية يدعو الى الرثاء . وقد شيد الصينيون بعد أن حولوا أنفسهم الى رجال صناعة الافران الصغيرة في ساحات البيوت والشوارع . وحصل الصينيون على الحديد الخردة الذي يكفي للصناعة مع المغامرة بالاختناق . وكانت النتيجة السيكلوجية هائلة فقد أصبحت حكومة بكين مثاراً للسخرية .

ولم تأت الكوميونات بأى تحسن فى الصين . وكان اهمـــال المزارعين يوازى المقاومة السلبية . واما بالنسبة للحياة المشتركة ووجبات الطعام المشتركة والمجتمعات الجماعية ، فقد كان السكان يرون هذه التجربة محدودة العهد وسخيفة .

وكانت الصين تستطيع بفضل ارتباطها مع اليابان أن تجد من يدعمها كما كان من الممكن أن تزول الـكوميونات وتصبح فى طى النسيان . وكانت الصين تستطيع بتطوير سريع لاقتصادها أن تزيل بعض المشاريع الايدلوجية المتسمة بالتسرع والغموض والتى لم تضع فى اعتبـــارها الحاجات الانســـانية كما كانت تستطيع الاستغناء عن التجارب التى لا جدوى من ورائها .

ووصلت الازمة فى العلاقات الصينية ـ الروسية الى ذورتهـا عندما أعلن خروشوف فى المؤتمر الحادى والعشرين عن عزمه على انجاح مشروع السنوات السبع الذى قدمه لتنفيذه فى روسيا . ولتحقيق هذه الخطة كان الاتحاد السوفيتى بحاجة الى صـــيانة السلام . وثمن السلام هو الاتفاق مع امريكا بعد بعض التنازلات فالسلام ضرورى من أجل هذا المشروع والمشروع لا يتحقق الا عن طريق السلام .

ومع ان خروشوف لم يتردد فى ان يدفع الكثير من أجل السلام الذى لابد منه لتحقيق مشروعه الا انه لم يكن على أستعداد كبير للتضحية بجزء كبير مما سيحققه المشروع لسد حاجات الصين التى أعربت عن تصميمها على المضى فى تجربتها بطريقها الخاص ونظرا لانها رفضت اتباع الاتحاد السوفيتى فباستطاعتها المضى فى طريقها بوسائلها الخاصة .

وقد كان هذا الطريق محفوفا بالاخطار . وكانمن المحتمل ان تنتشر المجاعة عند أول مرحلة وأول نقطة . وكانت هذه المجاعة هى ما يخيف حكومة بكين التى لا تستطيع قبولهـــا مثلما قبلتهـــا الحكومات الاقطاعية .، ورغبة بكين فى التغلب على المجـاعة جعلت مصير الحكومة فى مهب الريح .. ولم يكن تجنب الكارثة بمستطاع الا عن طريق اتباع الوسائل التعاونية والجماعية .

وكانت مهمة الحكومة جسيمة فيما يتعلق بصغار المزارعين ازاء زيادة السكان المستمرة التى تدعو الى تجزئة أراضى الصين بصورة لا نهاية لها . وكان هذا مايتضمن خفض مستوى معيشة الفلاحين بالتدريج .

وقد كان عدد سكان الصين ١١٢ مليون نسمة ســنة ١٦٨٥ وارتفع العدد الى ٣٠٠ مليون فى عام ١٨٧٢ ثم الى ٦٠٠ مليون فى عام ١٩٥٨ لذلك كان لابد من توجيـــه أكثر من خمسمائة مليون مزارع وتبصيرهم بمسئولياتهم بواسطة الاساليب الجماعية ولم تتدخل الايديولوجية فى هذا الامر . وقد احتفظ التجريب الصينى بمركزه .

وقد سوى الاتحاد السوفييتى مشكلة المزارعين سنة ١٩٣٥ ولما كانت روسيا منهمكة فى مرحلتها « البورجوازية » التقدمية فقد كان من العسير عليها الاهتمام بمشاكل الصين . لذلك تجاهلت هذه المشاكل . ويملك الاتحاد السوفييتى قوة ذرية من الدرجة الاولى وهو يستفيد أكثر فأكثر من موارده الخام وعدا ذلك ، فان روسيا تمارس تدهورا ايدلوجيا خطيرا . واماالصين فهى أكثر بلدان العالم سكانا وهى غنية بالمواد الخام وايديولوجيتها حديثة العهد ولكن اقتصادها لازال يحبو وهو يفتقر الى أسس متينة .

ومن ثم ، فهناك فى قاعدة التحالف الصينى ــ السوفييتى تفاوت ملحوظ تفاوت فى الوقت وفى المكان وفى فكرة الشيوعية التى تطبق فى البلدين . ولذلك فقد انقلب الازدواج الايديولوجى الى تنافس .

الفصل الثانى

نظريات ورجال

تحولت روسيا فى ظل دكتاتورية ستالين الى ملكية خاصة هى ملكية اقليم جورجيا مسقط راس ستالين وكانت الايديولوجية الشيوعية تخدم جميع الاغراض .

واصبحت الستالينية بعد وفاة ستالين مجرد صورة مشوهة للماركسية .. اللينينية .. وحاول خلفاء ستالين — اتباعه السابقون — انقاذ الموقف الذى اصبح مهددا بالخطر على المستوى الايديولوجى . وسيطر خروشوف على بقية الاتباع وغير اتجاه السير . وبصفته شيوعيا عن اقتناع فقد أوقف اصحاب النظريات والاصلاح فى الحزب الذين ارادوا المضى فى تجارب لينين دون ان يأخذوا فى الحسبان تطور الفكر الروسى .

وتخلص خروشوف من رفاقه السابقين . وكان يرغب فى التنديد بالستالينينية التى ينادون بها — اى اصرارهم على المضى فى الاساليب الوحشية التى اتبعها الديكتاتور الراحل . وكان خروشوف يتظاهر بأنه من أنصار ستالين وذلك بقصد تجنيب الاتحاد السوفييتى ما هو اسوأ والمعروف انه لم يتوقف مطلقا عن الدفاع عن الشعب الروسى ضد هذا الطاغية .

وهكذا برز خروشوف كبطل لسياسة سوفييتية جديدة .

وكان عليه أن يزيل من الاذهان سيرة ستالين وأن يضع حدا لفترة الارهاب التى تميزت بها ديكتاتورية البروليتاريا . وأصبح الروس من المحافظين .
واحتمل أفراد الشعب تنظيم الدولة للاقتصاد ولكنهم ارادوا الاستفادة من المكاسب المادية التي لم يكن لاحد الحق فيها سوى اعضاء الحكومة البارزين ونصب خروشوف لفسه رئيسا للحكومة وظهر بمظهر الرجل المرح وكان اهتمامه ينصب على تحسين الموقف الاقتصادى بالنسبة للمواطن الروسى العادى وأصبح خروشوف مثل هنرى الرابع ، فقد اراد ان يعطى كل روسى وجبة الاسبوع فى الوعاء بينما هو ينتظر البطة التى تبيض ذهبا .

ولم يكن من السهل تبديد شكوك الروس الذين كانوا ينظرون الى خروشوف ووعوده بحذر . ومع ذلك فقد اعتاد الشعب على خروشوف ونسى ستالين واعماله البشعة . وكان خروشوف الاوكرانى أقل شرا من ستالين الجيورجى . وقد حل دهاء خروشوف المزارع محل براعة ستالين الاسيوية .

وكان لدى خروشوف مشروع عظيم هو انه يربط من جديد ـ بعد عهد ستالين ولينين ـ التقاليد الوطنية للبلاد وأن يحافظ على مستقبل الاتحاد السوفيتى الشيوعى ، وان يدعم الحكومة بتذكير الروس بأسبابه فخرهم بالاحداث الجليلة فى تاريخهم . ومن الماركسية الخالصة وعن طريق اللينينية والستالينية وصل الاتحاد السوفيتى الى نوع من الاشتراكية القومية .

ولم يكن خروشوف بالنسبة للروس سوى مرحلة وسطى او همزة وصل بين عصابات ستالين وزعماء المستقبل غير المتحيزين . ولم يعرف سكان روسيا ما اذا كان ينبغى عليهم ان يتبعوا خروشوف فى مشاريعه الايديولوجية . وخططه المليئة بالطموح ، ولكن كان الجميع يتفقون معه فى انفعالاته الوطنية وذكرياته

التاريخية وقد استطاع خروشوف الداهية بتخلصه من الفئـــة المناوئة للحزب ان يبتعد عن الذين كانوا شركاء فى عهد ستالين ثم أسكت فلاسفة الحزب ولم يكن هذا يعنى ان خروشوف كان ينكر معتقداته السياسية .. فقد كان نظريا شديد الاقتناع وربما كان خياليا بطريقته الخاصة . ولكنه رأى انه لا مفر من التريث الطويل فى الطريق الشاق الذى يؤدى الى الشيوعية . واتخذ لنفسه دور الانتهازى ولكن انتهازية لم تكن تنازلا للعالم الرأسمالى أو لمنافسيه السياسيين فى الاتحاد السوفييتى . وقد اضطر الى أن يجعـل الشعب الروسى يشعر ببعض الراحة . وان يلتفت الى مطالبـه العديدة واذا ما انتهى التريث ، فمن الممـكن ان يستأنف الروس زحفهم الى الامام بمختلف الطرق وقد تكون الوطنية أفضلها ...

وربما لاحظ خروشوف انه بتصرفه هذا كان يحذو حذوماوتسى تونج ، فقد عرف كيف يثير المشاعر الوطنية لتحقيق مشاريعـه السياسية .

وبفضل التريث الذى منحه خروشوف للشعب الروسى فى الناحية الايديولوجية استطاع أن يحرز بعض الكسب وان يحكم قبضته على الجماهير وان يحبط ميول الجيش الاحمر من أجل القيـام بانقلاب عسكرى .

ويعتبر الجيش الاحمر السوفيتى اقوى جيوش العـــالم من الناحية النظرية واما من الناحية الواقعية فهو يحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث القوة العسكرية وهو يقل عددا عن جيش الصين . ومنذ ان قام ستالين بتطهير القيادة العليـــــا للجيش فى عام ١٩٣٨ وحتى وفاة الديكتاتور لم يتدخل الجيش فى المشاكل الســـياسية والايديولوجية للاتحـاد الســوفيتى ولم يشترك الجيش فى الناحية المذهبية منذ ايام الحرب الاهلية وقـد استعاد الجيش قوته وهيبته ابان الحرب العالمية الثانية الماضية . وعاد الجيش لروسيا اكثر وطنية ومتمسكا بالتقاليد عن ذى قبل

وذابت الطبقة الايديولوجية التى كانت تسيطر على الجيش . ومنذ ذلك الحين ، وبالرغم من محاولات ستالين لاستعادة السلطة ، فقد احتفظ الجيش بمركزه وهو يعتبر دولة داخل الدولة .

ومنذ وفاة ستالين أصبح للجيش اهمية كبرى فى حياة الكرملين السياسية وقد تدخل الجيش لوضع حد لنشاط بيريا ثم تدخل للمساعدة فى القضاء على الفئة المناوئه للحزب . ولم يتوقف الجيش عن القيام بدوره المتسم بالحذر مع سادة الكرملين .

واما فيما يتعلق بجيش الصين الفتى ، فان القيادة العامة الروسية تنظر اليه بشيء من الاحتقار . وقد حارب السوفيت ضد المانيا وتحملوا الشطر الاكبر من هجمات النازية . وكان السوفييت على يقين بأنهم لم ينقذوا الاتحاد السوفييتى فحسب بل العالم بأسره . وما كان ماوتسى تونج يستطيع ان ينتزع الصين بدون مساعدة السوفييت . وقد كانت العمليات الحربية التى قام بها الشيوعيون الصينيون ضد اليابان لا تذكر ، ولو استسلمت موسكو لهتلر لاستطاعت اليابان أن تقضى على مقاومة الصينيين وان تبيد القوات الشيوعية .

واحتقار السوفييت للقوات الصينية المسلحة يصبح اكثر وضوحا اذا درسنا سلوك المتطوعين الصينيين ابان الحرب الكورية والمقاومة الجسمانية للجندى الصينى معروفة ، ولكن المستشارين العسكريين الروس كانوا يلومون هذا الجندى لافتقاره الى رباطة الجأش أمام عدو كامل التسلح . وفضلا عن ذلك فانه عندما رأى الصينيون التقاليد العسكرية الروسية ادركوا ان سجلهم العسكرى لا يزال يفتقر الى الكثير من اسباب الفخار .

ولكن المدهش حقا ان الروس يلومون القوات الصينية كثيرا بسبب اخلاصهم الايديولوجى . ومن الناحية الاخرى ، فقد كانت هيئة أركان الحرب الروسية ترى ان الجندى الصحيح يجب ان

يضع نصب عينيه قبل كل شيء النظام الذى تفرضه عليه معتقداته الوطنية وحاجته الاولية للدفاع عن ارض وطنه وبيته وأرضه وبلاده بصفة عامة . ومع ان الخبراء العسكريين الروس يعترفون بأن الايديولوجية يمكن أن تحل محل القومية فهم يرون أن فكرة القومية لازالت غامضة بالنسبة للجماهير الصينية فضلا عن أن الجيوش الكثيرة العدد كجيوش الصين تواجه أخطارا عديدة اذا واجهت هزيمة عسكرية ولو محدودة النطاق .

ومن الممكن فى مثل هذه الحالة ان تنتشر الفوضى بسرعة بين الاشخاص الذين ليس لديهم ما يدعمهم اذا فشلت ايديولوجيتهم ويكمن للايديولوجية أن تؤدى الى التحمس فى حرب أهلية . ولكنها قد تؤدى الى كارثة اذا استخدمت فى حرب دولية . وفى هذه الحالة الاخيرة تتوقف الايديولوجية عن توجيه خطوات الحرب ولا يحبذ الكرملين أن يناقض وجهات نظر زعماء الجيش السوفيتى او يفرض رقابة عليهم . وللمرة الثانية ، فان هذا الموقف الذى يتسم بالحذر هو جزء من التكتيك الخاص باستمالة الجيش اذا كان المرء ليس متأكدا من استطاعته السيطرة عليه بصورة فعالة

وما يفيد موقف الاتحاد السوفييتى فى الداخل ، يفيد موقفه حيال دول الغرب ودول الحياد ، وبالفعل ، فان التريث يصبح فى مصلحة الكرملين عندما تكون العلاقات مع الدول غير الشيوعية موضع تساؤل .،

فالتريث يتيح المجال لازالة مخاوف الغرب ، فضلا عن انه يقنع دول الحياد بحسن نوايا الكرملين الذى اتجه الى الامانة السياسية واحترام قواعد مبدأ التعايش السلمى . وتدور جميع خطط الكرملين الحالية حول هذا المبدأ وهكذا استطاع الاتحادالسوفيتى فى غضون سنوات قليلة أن يحرز سمعة حسنة فى اتباع الاصول الدبلوماسية بحيث أصبح فى هذا المجال قريب الشبه بالعالم البورجوازى المهذب .

وللوصول الى هذه النتائج التى لا يستطيع الانسان ان يتأكد ما اذ كانت تنبع من الاخلاص الحقيقى او الرغبة فى التمويه فان الاتحاد السوفييتى لم يتردد فى كبح جماح الحماس الايديولوجى لفلاسفة الحزب الشيوعى السوفييتى ومن مصلحة الزعماء الحاليين للاتحاد السوفييتى ان يعتبروا فترة تجربة الإشتراكية قد انتهت وهذا يسمح لهؤلاء الزعماء بقمع المتطرفين من دعاة الماركسية واللينينية والحد من نشاط الخصوم فى اليسار وارضاء موظفى الدوله قدر الامكان بتأكيد فوائد مناصبهم بينما يحصل البيروقراطيون فى الحزب على مكاسب ماديه وعلى أسباب الامن الطبيعى مما حرموا منه فى عهد ستالين بيريا .

وهكذا فان الحكم السياسى الحالى فى روسيا — مع انه اشتراكى وسوفيتى الا انه لا يشابه الحكم الذى تخيله ستالين ولا زال بعيدا عن الحكم الذى حلم به ماركس ، وقد استمر تيار التطور الحالى بدفع حماس الثورة الذى عرف من ١٩١٧ — ١٩٣٥ فى طريق النسيان .

وان ما حققته الصين الشعبية من مشروعات ضخمة هللت لها دعاية بكين ، لم يقابل من الكرملين الا بالغمز واللمز . وقد نجم عن ذلك اضطراب تحول سريعا الى استياء . ان الصين هى الحليف الاكبر للاتحاد السوفييتى ولكنها حليف يثير العراقيل ويمنع موسكو من تزعم المعسكر الشيوعى دون شريك وقد عمد الاتحاد السوفيتى الى جعل الحكم الروسى أكثر تحررا لمنع اى سيطرة لبكين على الحياة السوفييتية .. وهذه هى الوسيلة الوحيدة لكسب الجماهير السوفيتية . وقد تأثرت من ذلك الشيوعية الحقيقية .

يحكم الصين خمسون رجلا من اتباع ماوتسى تونج وانصاره وقد انتهج هؤلاء لسنوات عديدة حياة صوفية وعسكرية فى آن واحد .. وكانوا مدنيين من حيث ملابسهم . وتجاهل هؤلاء المراوغات الايديولوجية بصفة عامة ، وكانت معتقداتهم الماركسية

عميقة ولكنها لم تتعرض لطبيعة اصحاب النظريات العمليـــة .
ويستطيع المرء ان يقول ان زعماء الصين الشيوعية عملوا بطريقة تناقض من سبقهم من البلشفيك الروس . وقد حاول الروس ان يطبقوا فى أحوال معينة نظريات فات أوانها بسبب تطور الاحداث ، بينما بادر الصينيون الى العمل ولما انتهوا من بناء صرح دولتهم البسوا نتائجهم العملية رداء النظريات .

وقد اشترك ماوتسى تونج رفاقه فى تحقيق رسالته , وهو بذلك قلد لينين فى سلوكه حيال مرؤوسيه . أما ستالين فقد شيـــد ديكتاتوريته على انقاض شركائه السابقين قبل أن يطبقها على روسيا ولكن ماوتسى تونج لم يتخل عن طريقته التى كان يعتبرها تلامذته الخمسون ديموقراطية على الاقل .

وطاف ماوتسى تونج وتلامذته فى طول الصين وعرضها ثلاثين عاما وعاشوا قريبين من الطبيعة . ومع أنهم عرفوا معنى النفى ، الا ان هذا لم يكن خارج حدود بلادهم الواسعة الارجاء . وقـــد استفادوا من حسنات عدوهم المشترك تشيانج كاى تشيك ثم انشقوا عليه وتصالحوا معه وفى النهاية طردوه من البلاد ولكنهم لم يتخذوا موقف الثوريين الروس الصـــلب المتزمت ، وانما كانوا انتهازيين بسبب الضرورة السياسية واحيانا بسبب ميلهم الى التفاوض .

وقد بدأ ماوتسى تونج حياته « وهو من مواليد ١٨٩٣ » بالتمرد على السلطة الابوية . وهرب من المدرسة ثم من عائلته ، ووجد ان النظام الاجتماعى الذى يريدون أن يفرضوه عليـه لا يطاق ، وقد زوجه أبوه رغم ارادته وهو فى الرابعة عشرة من عمره . ورفض ان يرى زوجته . وتزوج فيما بعد من طالبة كانت زوجته الحقيقية الاولى . وقد قتلها أعداء ماوتسى تونج السياسيون وتزوج مرتين بعد ذلك مرة من طالبة ثم من ممثلة شابة . ونظرا لان فكره كان

ثائراً فقد كان حائرا فى التماس طريقه ..

ولم يكن يعلم ماذا يجب أن يكافح فى سبيله من الناحية السياسية ولكنه كان يعلم ماذا يريد أن يقضى عليه : النظام الاجتماعى القائم . ومر ماوتسى تونج بعدة حالات ذهنية من قلق وغيرة . وقد اعتنق كل مبدأ وكل اتجاه .

وقد ارشدته الثورة الروسية الى النور ، فاصبح شيوعيا .. واستمالته روسيا ولكنه رفض الذهاب الى موسكو حتى تولى مقاليد الحكم . وكان يقصد البقاء صينيا قبل كل شىء .. وارتقى فى الحزب فى غضون سنوات . وفى سنة ١٩٣٠ اصبح مستشارا سياسيا فى الجيش الاحمر آنذاك ... وعين سنة ١٩٣٥ سكرتيرا للحزب . وفى سنة ١٩٤٣ فقط تولى رسميا السيطرة على الشيوعية الصينية .

وكان ماوتسى تونج تقدميا فى اعماله ومحافظا فى بعض النواحى .. وعن طريق هذا الاتجاه المحافظ حصل ماوتسى تونج على الالهام من التعاليم العسكرية القديمة التى اكسبته بعض النتائج الايجابية . وفى المجال السياسى كان بارعا فى الاستفادة من هذين الاتجاهين اللذين كانا متعارضين فى الظاهر . ووضع مبدأ حسب الماركسية — اللينينية والتقاليد الصينية القديمة ... وهذا المبدأ هو الديمقراطية الجديدة وكان يريد تطبيق نظريات ماركس على ظروف بلاده الخاصة وكان من الممكن أن يكون شعاره التجريب ولاشىء غيره .

وكان ماوتسى تونج لايهتم الا بالنتائج وبالحصول عليها باسرع مايمكن وقد احتل ماوتسى تونج اليوم مرتبة بين كبار مفكرى الشيوعية العالمية ، رغما عنه وان العقم الذى اصاب نظرية ماركس فى روسيا هو الذى صنع اسطورة ماوتسى تونج ..

وقام بعض تلاميذ ماوتسى تونج بزيارة لموسكو وتلقوا هناك

درسا يختلف جدا عن الدرس البسيط الذى قدمه لهم زعيمـهم ماوتسى تونج وقد عاد هــؤلاء « المنحـرفون » بدون تردد الى مدرسة ماوتسى تونج .

وكان التلاميذ البالغ عددهم خمسـين ـ أو بالاصح ٤٤ تلميذا ـ فى المرحلة الوسطى من العمـر . وكانت لديهم الخبرة والمعرفة . ولكن الذين سيخلفونهم هم من البيوقراطيين الـذين لم يتعرضـوا للنـار ولم يعرفوا شيئا من الشقاء ولم يتعرضوا للمطاردة .. وقد حصل التلاميذ على خبرة عسـكرية تفسر سر النفوذ القوى الذى يتمتع به الجيش الصينى .

كان ماوتسى تونج قائدا فى الجيش ، ولذلك فقد كافح فى سبيل السلطة وهو يشبه فى هذه الناحية كمال أتاتورك وليس لينين .. وعن طريق جهوده أصبح الجيش الاحمـر العنصر السـائد فى الحزب . فكان الجيش يحدد فئات اعضاء الاحزاب ويدربهـم فى المدرسة الثورية . بينما كان الحزب فى الاتحاد السـوفيتى يسعى الى الحصـول على الطاعة عن طريق البوليس الخـاص . وبينما لم يتوقف الكرملين عن الشـك فى الجنرالات ومراقبتهم مراقبة دقيقة فأن الزعماء العسكريين فى الصين كانوا يسيطرون على الدولة والحزب الذى خرجوا من بين صفوفه .. ويستطيع هؤلاء العسكريون ان يسيطروا على جميع المقاطعات والرجـال والثروات . وازداد البوليس قوة خاصة منـذ سنة ١٩٤٩ ولكنه لم يصل الى نسبة ما كانت عليه هيئة م.ف.د فى عهد سـتالين وبعـده .

وفى حالة التعبئة العامة ، يستطيع جيش التحرير الشـعبى الصينى أن يجند اكثر من ٨٠ مليون رجل . ويضم هذا الجيش عشرة ضباط برتبة مارشال .. واما لقب المارشال الاعلى الذى اوجد لماوتسى تونج ـ فلم يعط لاحد غيره والتنظيم العسكرى والنظام

فى هذا الجيش على درجة من التقدم ولكن اسلحة وعتاد هـــذا الجيش الضخم لاتفى بالغرض . ويلوم الشيوعيون الصينيون من غير العسكريين الجيش لنفوذه مع أن قوته ضعيفة نسبيا .

وتعتمد البحرية والسلاح الجوى فى الصين اعتمادا كليا على المعونة الروسية والتشيكية ، ولذلك فان الحكومة ترغب فى اقامة صناعة طائرات مستقلة .ان الاستقلال هو هدف جميع الصناعات التى تسد حاجة الدفاع الوطنى . وعدم صبر ماوتسى تونج وحكومة بكين يتجلى فى هذه الناحية . والمسألة ليست هى اقامة جيش قوى بما فيه الكفاية لشن هجوم على آسيا او على العالم بقـــدر ماهى مسألة التخلص باسرع ما يمكن من الحراسة السوفيتية فى مسالة الاسلحة ومعدات الحـــرب .

وعندما وجد الحزب الشيوعى الصينى نفسه على راس دولة يبلغ عدد سكانها ستمائة مليون نسمة فانه دفع اعضاءه الى العمل بكل قوة واستخدام ســلاح الدعاية لخدمة اغراضه .

وكان لابد من توفير عوامل النصر لدعاية الحزب . وقـــد تطوع الملايين من الشباب للقيـــام بهذه المهمة . وطاف رجال دعاية الحزب فى طول البـــلاد وعرضها بحمـــاس بالغ وبدون أقل استعداد وهم يحملون « الكلمة الطيبة » وكان هذا الحماس نتيجة مجابهة مساوىء العهد الماضى ووعود العهد الجديد وبالفعل كانت مهمة رجال دعاية الحرب أن يرفعوا معنوية الجماهـير وأن يثيروا فى أنفسهم قدرا من الثقة فى انفسهم وفى المستقبل . وقد فعل المبشرون الجدد المعجزات . فقد ازالوا مخاوف الفلاحين وقضوا على شكوكهم . وكان عليهم ان يقنعوا رجال الصـــناعة بحسن نية الحكومة تجاههم . وهاجموا الخمول والفساد المتفشين بين الموظفين واستطاعوا القضاء على الشعور بعدم المبالاه .

ولم يكن هناك داع ـــ كما حدث فى روسيا للقيام بحمـــلات انتقامية ضد الفلاحين .

وكانت النتائج مرضية بشكل عام ، مع أن البيروقراطية لم تكن بطيئة فى وقف بعض الدوافع . ولكن كان لابد لدعاية الحزب من المضى فيها وتكيفت أذهان المثقفين مع الموضوع الجديد. وبفضل هذا التكيف اللائم تغلب الحزب على الصعوبة الكبرى .وهى تولى زمام الامور وقررت بكين أن تدير شئون البلاد ادارة حازمة وبدأت هذه الخطوة بدفع رواتب طيبة للموظفين وبصورة منتظمة . وأعطى هؤلاء مركزا يخولهم امتيازات لم يكونوا يحلمون بها فى عهـــــد كومنتانج . وهكذا ، اقام الشيوعيون الصينيون حكمهم فى اربـــع سنوات ، بينما استغرق الامر بالنســـبة للكرملين خمسة عشر عاما .

والتزم السوفييت الصمت ابان فترة التلاؤم هذه . وما كان ماوتسى تونج يقبل بسهولة أى تدخل من قبل موسكو فى تطـوير المغامرة الشيوعية الصينيـــة . وفى الوقت الذى كان الحـــزب الشيوعى الصينى يبدي فيه امتنانه للمعونة المـادية والفكرية من الاتحاد السوفيتى ، فان الحزب كان وطنيا فى جوهره وليس دوليا .. واطلق الجيش الصينى على نفسه اسم جش التحرير . فقد حرر الجيش الشعب الصينى من مضطهديه البورجوازيين كمـا حررهم من التدخل الاجنبى ولاسيما التدخل الامريكى . ولـــم يكن فى وسع الصينيين احتمال اى تدخل جديد حـتى ولو كان وديا .

كانت الصين قد تعرضت لتدخل متواصل من الخارج وبخاصة اليابان وفرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا وذلك خلال النصــف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين . وكما سرقت هذه الدول الاجنبيه حقوقا فى أراضى الصين فقد حذت حذوها الولايات المتحدة والمانيا . فقد هزمت اليابان الصين فى حرب ١٨٩٥ واستولت على كوريا . ولم تكن حركات الاصـلاح فى

الصين قد نشأت فى ذلك الحين ، ولكن المصلحين كانوا يريدون تغيير معالم بلادهم الاقطاعية والمتاخرة اقتصاديا وجعلها دولة حديثة كاليابان مع طرد الاجانب وكثيرا ما كانت الثورات التى يثيرها رجال الاصلاح حينئذ تهاجم المستوطنين الاوربيين قبل أن تتجه نحو حكام الصين انفسهم .

وفى سنة ١٩٥٩ اصبح ماوتسى تونج بطل الصين التى حطمت الاقطاع وقضت على الفساد وطردت الاجانب ، ولم يكن هناك شك حول السماح للسوفيت باحتلال مناصب هامة فى الحياةالسياسية للصين الجديدة . وقبل ماوتسى تونج عرض المعونةالاقتصاديةمن جانب السوفييت . ووافق على وصول ٢٠ الفا من الاخصائيين الروس بشرط ألا يحاولوا ممارسة اى نشاط سياسى ابان اقامتهم فى الصين .

وبالرغم من ذلك ، فان الصينيين لم يكونوا يشعرون بفتور نحو الروس وكانوا يعتبرونهم أفضل شعوب الغرب ، وان دراسة العلاقات التاريخية بين روسيا والصين قد توضح سر مودة الصينيين تجاه الروس .

الفصل الثالث

من نيرتشنتسك الى منشوريا

غزا المغول روسيا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . . واستطاعت موسكو ان تحرر نفسها من الغزاة الاسيويين واضطهادهم لها . واصبحت موسكو مركز روسيا وبدأت تهتم باسيا وقام الروس بأول غزواتهم وراء جبال الاورال . وكان هذا بداية توسيع بطيء .. نحو الشرق .

وفتح الروس اراضى سيبريا سلميا فى القرن السادس عشر والسابع عشر ووصلوا الى مشارف الصين ووجدوا انفسهم فى أقاليم واسعة لم يهتم الصينيون باحتلالها .

وحدث اللقاء بين الروس والصينيين فى اللحظة التى توحدت فيها روسيا تحت حكم اسرة رومانوف بينما استعادت الصين وحدتها بزعامة أسرة مانشو بعد حروب أهلية طويلة . وفى ذلك الحين كانت الامبراطوريتان تحتلان ضفاف نهر امور .

وفى عام ١٦٨٩ وقعت معاهدة نيرتشنتسك التى تبادل بموجبها الصينيون وقياصرة روسيا العلاقات الديبلوماسية وحددوا مناطق نفوذ البلدين على طول نهر آمور .. وتطورت العلاقات التجارية المحدودة التى كانت قائمة منذ عهد المغول بسرعة عبر الحدود الطبيعية .. وتبادل تجار البلدين منتجاتهم تحت اشراف الجنود الذين يحرسون نهر امور .

ومعاهدة نيرتشنسك التى سمحت بعد تسوية مسائل الحدود بفتح أبواب الصين لتجارة روسيا كانت أول معاهدة تعقدها الصين مع دولة اوربية .

وسارت العلاقات الروسية مع الصين وفق هذه المعاهدة حتى عام ١٨٥٨ . ولما تحرك الاستعمار الروسى فى آسيا نتيجة تقدم الاستعمار البريطانى هناك امر القيصر نيقولا الاول قواته المرابطة فى سيبريا بالزحف نحو وسط اسيا للوصول الى حدود ايران وافغانستان بصفة خاصة . وكان لابد من وقف تقدم بريطانيا فى شمال غرب الهند . . ولكن هذا الزحف نحو جنوب أسيا رافقته حملة تقدمت نحو الشرق باتجاه سنكيانج الى شمال غرب افغانستان .. وكانت مقاطعة سنكيانج تابعة للصين . و الحقيقة فان هذه المقاطعة كانت تتمتع بالحكم الذاتى على اساس ان سكانها ليسوا صينيين . فضلا عن بعدها عن بكين وحصل الروس على حق ادارة سنكيانج . وكانت روسيا تحتفظ ببعض النفوذ فى هذا الجزء من الصين حتى ثورة ١٩١٧ . ولم تنج منغوليا من حاجة روسيا الى التوسع نحو الشرق الاقصى وهناك ايضا اعترفت الصين بحق روسيا فى الاشراف على مقاطعة اخرى من اراضيها . ولم تنجح الصين الى اليوم فى استعادة منغوليا الخارجية التي يعتبر استقلالها عن روسيا شيئا صوريا .

وبعد منغوليا جاء دور منشوريا . وفى سنة ١٨٥٨ وقعت معاهدة جديدة بين الصين وروسيا بدلا من معاهدة نيرتشنسك . . وحصلت روسيا فى هذه المرة على حق المرور عبر اراضى الصين لتستطيع قواتها الوصول الى المحيط الهادى وانشأت روسيا ميناء فيلاديفستك .. وقررت انشاء خط حديدى عبر سيبريا بناء على نصيحة بسمارك الذى ابتهج لرؤية الروس يتجهون الى الشرق الاقصى تاركين الالمان احرارا ــ كما اعتقد ــ فى السيطرة على

اوربا . وقد سار الخط الحديدى عبر منشوريا . وبذلك وقعت مقاطعة صينية اخرى تحت سيطرة روســـيا .

وادى ضعف امبراطورية الصين فى ذلك الحين الى ان تصبح روسيا دولة قوية بجوار الصين . واستطاع قيصر روســـيا ان يتدخل فى شئون الصين كما يحلو له . ومع ذلك فان وجودالروس لم يوقظ شعور العداء فى الصين وتجنب الروس استغلال الاراضى التى سيطروا عليها ، كما تجنبوا التدخل فى المسائل المحلية القائمة . وكانت روسيا هى الدولة البيضاء الوحيدة التى اســـتطاعت فهم خفايا الشخصية الصينية .

وقد استطاعت روسيا بفضل غزواتها لاسيا ان تحصن نفسها ضد الخطر الاصفر وان تجعل عقلية الروس مرنة كما اتاحت لهم ممارسة سياسة تتسم باللين والدهاء تجاه جيرانهم الاسيويين وقد مكنهم ذلك من وقف التوسع البريطانى على الحدود الشمالية لامبراطورية الهند .

وكانت الحرب الروسية واليابانية نكسة بل كارثة ، ولكن يجب معرفة اصولها واسبابها لان هذه مسألة لهـا علاقة باضمحلال روسيا القيصرية فى الداخل وقد عرفت الديبلوماسية القيصرية كيف تتجنب الاصطدام المباشر مع الجماهير الصينية وقد يقـول المرء ان الحرب التى خاضتها روسيا مع اليابان سنة ١٩٠٥ مـع انها خسرتها من الناحية العسكرية الا انها كانت مفيدة لروســـيا بسبب العطف الذى اوجدته فى الصين عى الدولة الاوربية الوحيدة التى قاومت اليابان عدو الصين اللدود فى القرن العشرين . ففى بداية القرن الحالى ، كان الصينيون يعتبرون اليابان خائنة للقضية الاسيوية وانها متواطئة مع بريطانيا .

وعندما قام صن يات صن بثورته عام ١٩١٧ واقام برنامجــــه السياسى على ثلاثة مبادىء هى : الوحدة الوطنية والديمقــراطية

والتقدم الاجتماعي ، نظر الى روسيا القيصرية كدولة صديقة كبيرة . وفى نهاية الحرب العالمية وبعد الثورة الروسية ، ولدت الشيوعية فى الصين . ومنذ عام ١٩٢١ بدا الحزب الشيوعى الصيني يلعب دورا هاما وتحالف صن يات صن مع الشيوعيين ـ الذين كانوا قوة لايستهان بهم ـ وقبل المعونة المادية من روسيا .. ومنذ ذلك الحين لم ينقطع نفوذ الاتحاد السوفيتى سواء داخل حدود الصين او خارجها .

وكان ستالين يحبذ تحالف الشيوعيين الصينيين مع حكومة تشاينج كاى شيك وهو بذلك يخالف تروتسكى فى هذه الناحية .. وكانت النتيجة وقوع كارثة ، فان تشاينج كاى شيك استفاد من المعونة فانقلب على حلفائه وقبض على زعماء الشيوعيين واعدمهم وطرد المستشارين العسكريين السوفييت . واضطر ميشيل بورودين الذى نظم القوى المشتركة لحكومة كومنتانج والشيوعيين فى الصين الى الرحيل عن الصين .

وكان موقف ستالين الانتهازى هذا وليد حذره ورغبته فى تجنب اي اتهام يوجه الى الاتحاد السوفيتى بانه يتدخل فى شئون الصين وبينما كان تروتسكى يطالب بالثورة بأى ثمن ودون تاخير كان ستالين يفضل مسايرة الظروف واعلن ستالين فى خطاب له امام المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي السوفيتى فى ديسمبر سنة ١٩٢٧ .

اعلن ان عدم احراز الثورة الصينية لاى انتصار على الاستعمار يجب عدم المبالغة فى تقديره اذا وضع المرء نصب عينيه ظروف وامكانيات الثورة وقال ان الثورات .. الشعبية الكبرى لاتنتصر دائما فى الجولة الاولى .

وقد بدات الجولة الثانية عندما الف الشيوعيون حكومة سوفيتية فى مقاطعة كيانج سى ـ وسط الصين تحت اشرف ماو تسى تونج وشواين لاى وتشوتيه . وعندما طرد هؤلاء من كيانج سى سنة ١٩٣٤ لجأوا الى مقاطعة شنسى البعيدة واتخذوا بلدة

يينان عاصمة لهم . وانتظروا اللحظة المناسبة لاستئناف هجومهم .. وقد اتاح لهم اليابانيون هذه الفرصة عام ١٩٣٧ .

وعاود ستالين بعد تخلصه من تروتسكى — سياسة اللف والدوران فاعترف بحكومة تشاينج كاى تشيك ، وتجنب اى اتصال مباشرة مع ماوتسى تونج وترك الموقف فى الصين ريثما يتضح .. وكانت الحكومة الشيوعية تقدر هذا الموقف ولكن ماوتسى تونج اضطر الى عدم القيام باى نشاط . ورأى تشاينج كاى تشيك وحكومته ان الروس جيرانه معتدلون مسالمون يستطيعون تهدئة الدوافع الميالة الى القتال لدى الشيوعيين الصينيين .

وعندما هاجمت اليابان الصين اتخذت الدول الغربية موقفا يتسم بعدم الاكتراث حيال ذلك . وأكد الروس للحكومة الصينية تاييدهم الاولى لها . وفى الوقت نفسه اوحى الروس للشيوعيين الصينيين بالتعاون الفعال مع حكومة تشاينج كاى شيك . وانتقل الروس بعد ذلك من القول الى العمل وقاموا بحملة عسكرية ضد اليابان قرب مشارف منشوريا ، وقد انتصر الروس فى هذه الحملة ٩٣٨ — ١٩٣٩ وساعدت هذه المعارك على تخفيف العبء عن الصينيين — الحكومة والشيوعيين فى كفاحهم ضد المحتلين اليابانيين . وكشفت هذه المعارك ايضا عن المواهب الحربية لقائد القوات السوفيتية فى الشرق الاقصى — زوكوف — الذى اصبح مارشالا فيما بعد .

وقد قرر ماتسى تونج من تلقاء نفسه وبتشجيع من موسكو ان يتعاون مع الحكومة المركزية فى الحرب ضد اليابان . ولكنه اقدم على ذلك بكل تحفظ واعلن اساس هذا التحفظ فى اجتماع سرى للحزب على صورة شعار : ان ٧٠٪ من سياستنا هى من اجل تطوير الحرب و ٢٠٪ للتعاون مع تشاينج كاى شيك و ١٠٪ للنضال ضد اليابان ..

وفى الوقت الذى التزم فيه ماوتسى تونج ببرنامجه كان

لستالين علاقات طيبة مع حكومة الصين المركزية ـ وقد فعلت الدول الغربية .امريكا وبريطانيا العظمى ما بوسعهما لتحاشى هجـــوم ليابان على ممتلكاتها او مناطق نفوذها فى اسيا . والى ان وقـع الهجوم اليابانى على بيرل هاربر كانت الدول الغربية تحاول كسب صداقة طوكيو .ولكنها اضطرت بعد ذلك الى اتخاذ موقف يتسـم بالتحفظ الشديد ازاء الصين . وقد استفادت روســيا التى التزمت بسياسة التفاهم الودى مع الصين من ميل الدول الغربية المؤقت الى مساعدة حكومة الصـــين المركزية . فعقب العدوان اليابانى عام ١٩٣٧ وقعت روسيا معاهدة عدم اعتداء مع الصـين ومنحتها قروضا واعتمادات واسعة النطاق وتعهدت بمـــدها بمواد عسكرية وغيرها بينما قامت قوة من الطيران التكتيكى الروسى « المتطوعين » يقدر عددها بخمسمائة طائرة بحماية نانكين وهانكو وغيرهما من مدن الصـين .

وقد اعترف الجنرال الامريكى تشينولت المستشار العسكرى لتشيانج كاى شيك ـ فى كتاب صدر سنة ١٩٤٩ بان منـذ صيف ١٩٣٧ الى ١٩٤٢ كان الجزء الرئيسى من المعونة الخارجية للصـين ياتى من روسيا وقد قالت مدام تشاينج كاى شيك فى ٢١ يناير سنة ١٩٤١ فى هذا الصدد « خلال السنوات الثلاث الاولى مـن مقاومتنا لليابان ، قدمت لنا روسيا معونة اقتصادية وعسـكرية تبلغ اضعاف ما حصلنا عليه من الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى .. وعدا ذلك فان روسيا ايدت طلب الصين فى عصـــبة الامـم بوجوب اعتبار اليابان دولة معتدية وعندما احتجت اليابان بـان المعونة التى تقدمها روسيا للصين هى خرق لحياد السوفييت لم يهتم الاتحاد السوفيتى بذلك واستمر فى تقديم المعـونة ويمكننى ان اقول ان هذه المعونة لم تكن مشروطة »

وعقب هجوم اليابان على الولايات المتحدة وهجوم المانيا على روسيا تضاءل نفوذ روسيا ومساعدتها . ولما كان هنـاك اتفـاق

روسى ـ يابانى وقعه ستالين وماتسوكا فى موسكو . فان الروس حولوا جميع جهودهم ضد المانيا ورغم أن روسيا لم تكن قد اهملت الصين الا انه لم يكن فى وسع ستالين ان يهتم بها كما كان يفعل من قبل وأصبح النفوذ الامريكى فى الصين هو الغالب . وبينما ظهر ان الروس على وشك ترك الصينيين لمصيرهم ـ من شيوعيين ووطنيين فان الامريكيين اصبحوا هم حلفاء الصين .

وظل نفوذ السوفيت كما هو ثم ازداد عقب موقعة ستالينجراد .. ولكن لم يصبح لدى الصينيين نفس شعور الامتنان نحو موسكو .. واصبحوا يدركون انه لو لم يوقع حلف عدم الاعتداء بين روسيا واليابان ولو ظلت اليابان العدو القوى لروسيا لنظرت موسكو للصين على انها حليفتها الكبرى . وقد شعر ماوتسى تونج بخيبة الامل من هذه الحقيقة شانه فى ذلك شان الحكومة المركزية فى الصين . فقد كانت الصين تعتبر هذا التحالف الروسى ـ اليابانى حلقة مرتبطة بالحلف الالمانى الروسى الذى عقد فى عام ١٩٣٩ .

ولولا الولايات المتحدة وبريطانيا لبقيت الصين وحدها تواجه مصيرها ولمحاولة تبديد هذا الرأى السىء لم يتوقف ستالين عن مسايرة تشاينج كاى شيك وحكومة تشونكنج ، وقلما كان الشيوعيون الصينيون يرد ذكرهم فى موسكو واذا حدث ذلك فانما يكون عند مقارنة مركز الشيوعيين الصينين الضعيف بالنسبة للحكومة المركزية ولم يكن هناك مجال بالنسبة للكرملين كى يعتبر الشيوعيين الصينيين دولة داخل دولة . وكان ستالين من الناحية الرسمية على الاقل يعترف بشانج كاى شيك ممثلا للصين باسرها ـ وهذا مثل اخر على انتهازية ستالين التى سمحت ببقاء النفوذ الروسى فى الصين .

وخلال هذه الفترة بالذات ٤٢ ـ ١٩٤٤ بدا الشيوعيون

الصينيون يظهرون تحفظهم ازاء النظـــام الماركسى الذى نشره ستالين ولاسباب تتعلق بسياسة السوفيت العليا وضع ستالين مسالة المحافظة على بلاده فوق جميع الاعتبارات الاخرى واحيانا على حساب التعصب الايـــديولوجى . ولم يكن ثمـــة ما يدعو الشيوعيين الصينيين الى عدم اعادة النظر فى الايديولوجية الشيوعة او تحويل نظامها واساليبها بحيث تصبح ملائمة لطبيعة البـلاد وظروفها فى ذلك الوقت وفى ســـنة ١٩٣٨ اعرب ماوتسى تونج بوضوح عن هذا الاتجـــاه عندما قال « يجب أن تتخـذ الماركسية صورة وطنية حتى يمكن تطبيقها عمليا وان كل ظاهرة للماركسية الصينية يجب ان تحمل الطابع الصينى اى تتلاءم مع الصـفات الصينية » وقد اظهرت رغبة ماوتسى تونج فى ايجـــاد ماركسية صينية انه يريد اثبات أن الثورة الصينية كانت فريدة فى نوعها وليس ثمة من صفات مشتركة بينها وبين الثورة الروسية .

ويرى ليوشاوتشى « العقل المفكر » للحزب الشيوعى الصينى أن هذا الحزب من خلال العشرين عاما الاولى قام باحداث جليلة هامة اكثر من تلك التى مر بها اى حزب شيوعى اخر فى العـــالم، وانه حصل على خبرة اكبر فى ميدان الكفاح الثورى . وقد اعلـن ليوشاوتشى هذا القول عام ١٩٤٣ وبعد بضع سنوات رات روسيا ان الصين الشيوعية ليست الجار والحليف الايديولوجى الـذى كانت تتمناه . وابان الحرب العالمية الاخيرة شعر الشيوعيون فى الصين انهم وحدهم فى الميدان . وكان هذا الشعور بالهجر الذى فرضه نظام الشيوعية فى العالم هو الذى اصبح بذرة الشـقاق بين موسكو وماوتسى تونج .

ولما تطور سير الحرب فى صالح الروس ، عاد اهتمام الكرملين بالصين من جديد . ومن عام ١٩٤٤ الى ١٩٤٥ شدد النقـــاد فى الصحف الروسية هجومهم على حكام الصين باستثناء تشيانج كاى شيك الذى لم يتعرض له احد ، ولكن أنصار وخصوم كاى شيك

بدأوا يعملون واكتشفت الصحف السوفيتية فجأة الانقسامات الداخلية فى الصين بعد ان تجاهلتها عن عمد ، ونددت الصحف بالرجعيين الصينيين وقارنت الصحف بين الحكم السياسى فى الصين والفاشية الاوربية ، وازدادت هذه الحملات عندما اخذ يوم ٨ اغسطس سنة ١٩٤٥ بالاقتراب وهو اليوم الذى وعد فيه ستالين الرئيس روزفلت بالتدخل عسكريا ضد اليابان .

ووقع الهجوم فى التاسع من اغسطس . وكان الامر لايتعلق بمعاملة اليابان بقدر ما يتعلق بتاكيد مركز روسيا فى الشرق الاقصى وتوسيع منطقةفلاديفسك ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز المتغلغل داخل منشوريا — او بتعبير اخر داخل الصين . وبطريق الصدفة ، كانت هناك قوات صينية فى شمال الصين غير بعيدةعن منشوريا . وقد استطاع ستالين بعد التقاء الجيوش الروسية مع الجيوش الصينية ان يتدخل فى شئون الصين مباشرة وان يعوض الزمن الذى ضاع ابان الحرب .

ولم يبد ماوتسى تونج حماسا لهذه الحادثة . وكان على ستالين ان يتدخل فى مشاكل الصين حتى راى الشيوعيون الصينيون ان ذلك ضروريا . وقد اعتمدت الثورة فى الصين على الارادةالوطنية فقط . وتراجع ستالين خطوة وبينما كان يصر فى بادىء الامر على احتلال الروس لمنشوريا تقدم ببعض المقترحات لتشيانج كاى شيك من اجل التفاوض حول شروط عودة منشوريا الى الصين

وتدخل الامريكيون بدورهم . فقد ارادوا مساعدة قوات الصين النظامية تجاه المطالب التى قدمتها اليابان التى كانت تحتل بعض مناطق الصين . وقد حرمت القوات الشيوعية مثل هذه المساعدة وادرك ماوتسى تونج الضعف النسبى لقواته .

وفى الرابع عشر من اغسطس سنة ١٩٤٥ وقعت المعاهدة الصينية الروسية ولكن الاحداث طغت عليها . فقد اوقفت اليابان الحرب .

وقد كانت هذه المعاهدة متعلقة بالعمليات الحربية ضداليابان .أما فيما يتعلق بمنشوريا ، فان تاكيدات ستالين لصهر تشيانج كاى شيك ــ سونج ــ بان القوات الروسية ستجلو عن منشوريا بعد ثلاثة أسابيع من استسلام اليابان ــ لم تكن تعتبر مضمونه .

وارغمت المساعدات التى حصل عليها تشيانج كاى شيك من الامريكيين ماوتسى تونج على اعادة التفكير فى موقفه ، فقبل عروض ستالين بالتعاون معه . وكان اهتمام ستالين ينصب على احتفاظ القوات الروسية بما حصلت عليه فى منشوريا وان تواصل ممارسة نفوذها القوى فى الصين . وافضل وسيلة لذلك هى الأحتفاظ بالتوازن الدقيق بين الحكومة المركزية وقوات بينان الشيوعية . وقد فعل تشرشل الشيء نفسه فى يوغوسلافيا عندما ايد فى نفس الوقت الحكومة الملكية وقوات تيتو .

وكان لابد من وقف تطور نفوذ ماوتسى تونج . واتبع ستالين سياسة المراوغة فقد استخدم ستالين ماوتسى تونج كمقياس للسياسة التى مارسها تشيانج كاى شيك وتجنب ستالين تاييد الشيوعية الصينية . وكان ستالين يحاول تهدئة مشاعر الامريكيين وفضل التعامل مع حكومة ضعيفة فى الصين هى حكومة كومنتانج على أن يتولى الحكم ماوتسى تونج القوى .

وقد بذل ستالين مافى وسعه لاقناع حكومة الصين المركزية بوضع اسس للتعاون الاقتصادى مع منشوريا كتجربة . ولكن تشونكنج أصمت آذانها . ولم يكن هناك حديث عن عقد أية اتفاقية قبل الجلاء التام عن منشوريا أو قبل انسحاب القوات الشيوعية الصينية من المدن والاقاليم التى جلت عنها القوات السوفيتية .

وقد برهنت حوادث التمرد التي وقعت فى مدن الصين الرئيسية على استياء الصينيين غير الشيوعيين من موقف روسيا فى منشوريا . وكان ستالين يهدف الى تجنيب الجيوش الروسية

التى تحتل هذا الجزء من أراضى الصين الكراهية التى كان السكان يشعرون بها تجاه اليابانيين .

وظل مبدأ الصداقة مع الصين باي ثمن هو الهدف الجوهرى لسياسة روسيا فى الشرق الاقصى . ومن الجائز ان ستالين كان يحتقر آراء الدول التى تدور فى فلك السوفيت والتى لم يكن دورها يتجاوز تشكيل نطاق واق حول الاتحاد السوفيتى، الا أن شعوره تجاه الصين كان يختلف عن ذلك تماما . وبدأت دلائل العداء للاحتلال الروسى لمنشوريا تثير القلق . ولم يكن ستالين يخشى مستقبل الشيوعية فى الصين فحسب وانما كان يخشى قبل كل شيء وفوق كل شيء ما سيصيب هيبة روسيا فى الصين وآسيا ولم تكن موسكو تشعر بالقلق حينئذ من النفوذ الامريكى .

وكانت الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٦ تتبع سياسة تتسم بالحذر استطاع الجنرال مارشال الامريكى ان يدافع عن هذه السياسة ضد دعاة التدخل فى الصين . ولذلك حاول ستالين جاهدا أن يكسب ود حكومة الصين المركزية .

وبعد أن قضى السوفيت على الصناعة فى منشوريا قرروا الجلاء عنها لكى يبرهنوا على رغبتهم فى التفاهم مع الصين وقد تم الجلاء بسرعة .. واعتقد ستالين أن جميع أسباب توتر العلاقات الصينية الروسية قد زالت . وقد أجاب ستالين على الاتهام الذى وجه اليه من أن القوة الصناعية فى منشوريا قد حولت الى روسيا فقال ان منشوريا كانت جائزة حرب نالتها روسيا من اليابان التى حولت منشوريا الى بلد صناعى وكان هذا العمل خطوة احتياطية بضمان موقف روسيا ضد أى خطر من منشوريا اذا أصبحت خاضعة لحكومة معادية . وقد وعد ستالين على أى حال الصينيين سواء حكومة تشونكنج المركزية أو الشيوعيين بمدهم بمعونة اقتصادية سوفيتية اذا أرادوا ذلك بدون أية شروط .

وقد ابلغ ستالين ماوتسى تونج ان الصناعات اليابانيةالسابقة فىمنشوريا وضعتتحت حماية السوفيت مناجل مصلحة المعسكر الشيوعى ، وانه عندما تصبح الصين شيوعية فانالاتحادالسوفيتى سيقدم لحكومة ماوتسى تونج المقبلة كل معونة اقتصاديةوعسكرية تحتاجها .

وبعد أن قدم ستالين مثل هذه الوعود لحكومة الصين المركزية كما قدمها لزعماء الحزب الشيوعى الصينى . انتظر ان يقـــدم تشيانج كاى شيك على الخطوة الاولى من اجل التفاهم بين الصين والاتحاد السوفيتى . ولكن حكومة الصين المركزية لم تقدم عـلى هذه الخطوة . بل بالعكس ، طلبت العناصر المحافظةفى تلكالحكومة من تشيانج كاى شيك ان يرفض جميع مقترحات الاتفاق مـــع روسيا ــ وأصيب ستالين بخيبة أمل . فقد كان يأمل أن يمكنـه عقد اتفاق بين ينان وتشونكنج من ان يستولى على السلطةالمركزية فى الصين مع الزمن وكان هذا يتيح لروسيا تحاشى وقوع خـلاف سريع مع الصين الموحدة اذا أصبحت تحت القيادة الشيوعية :

ولم يكن ماوتسى تونج بالطبع يعارض هذا الراى . ولـكن دوافعه كانت تختلف عن دوافع ستالين . فقد كان ماو يأمل أن يتيح له الفساد والفوضى التى تسود الصين فى ظل الحكومةالمركزية فرصةالاستيلاء على الحكومة بطريقة سلمية تلقائية . ولم يستبعد ماوتسى تونج احتمال استسلام تشيانج كاى شيك وفى سنة ١٩٤٦ كان ماوتسى تونج فخورا بما حققه الحزب الشيوعى من تقـــدم ولكنه لم يتنبأ بالانهيار الكبير الذى سيؤدى الى سقوط الوطنيين وانتصار الشيوعية الصينية .

وقد عمل تشيانج كاى شيك على سرعة انهياره برفضهالتعاون مع ستالين . ومع ذلك فقد اعتقد انه احسن التقدير . ورأى ان أمريكا لن ترفض تقديم المساعدات له . وتوجه الى منشـــوريا لتفقدها فى طائرة الجنرال مارشال الامريكى الخاصة معتقدا انه

يستطيع التأثير على الشعب بأن يظهر له أن أمريكا القوية ستقف الى جانب الصين ماديا ومعنويا من أجل اعادة بناء كيانها ورفاهيتها في المستقبل . ولكن كاي شيك أصيب بخيبة أمل . فقد اثار تصرفه عداء سكان منشوريا الذين جربوا الاحتلال الياباني ثم الروسي والذين كانوا يحلمون بالاستقلال التام وليس بنفوذ دولة أجنبية أخرى حتى ولو كانت امريكا ذات الموارد الضخمة ، وعاد تشيانج كاي شيك الى عاصمته وقد استحوذ عليه القلق والياس وتدهور الموقف بسرعة الى ان وصل الى الفوضى وافلاس الحكومة المركزية .

وتحول ستالين بعد ذلك الى الشيوعيين الصينيين — وتغيرت صورة العلاقات الصينية الروسية ، ولم يعد ستالين يصر على أن يسعى ماوتسى تونج الى التفاهم مع تشيانج كاي تشيك .

وكان من الواجب أن يتأخر استيلاء الشيوعيين على الحكم في الصين الى أن تستعيد روسيا توازنها الاقتصادي وتتخلص من متاعبها . وفي ذلك الحين تستطيع روسيا ان تمارس السيطرة على الشيوعية في الصين . وامر ستالين بتعطيل الصناعات في منشوريا . ونقلها الى روسيا . وكانت هناك مجازفة بأن تظل حكومة تشيانج كاي شيك في الحكم فترة طويلة من الزمن اذا جردت منشوريا من صناعتها مصدر غناها . ولم يكن هذا يهم الشيوعيين الصينيين الذين ظهر ان انتصارهم بات وشيكا. وبعد أربع سنوات ، تمكنت قوات ماوتسى تونج من تحرير الصين بأسرها . وقد تم هذا التحرير بفضل الاسلحة والموارد الحربية التي اخذها الشيوعيون من الوطنيين .

وأمام هذه الحقيقة الواضحة . اعترف ستالين بقوة الشيوعيين في الصين وبدأ الكرملين يستعد بحذر ولكن دون تحفظات أخرى للاتفاق مع العناصر الشيوعية هناك . وانطوى تاريخ الحكومة المركزية في الصين .

وقد استطاع ماوتسى تونج الذى كان يعارض فكرة التفاهم مع الحكومة المركزية ان ينتصر على العناصر الشيوعية التى كانت تميل الى التعاون مع الوطنيين . كما تغلب على آراء ستالين التى كان يعارضها وخاصة فى عام ١٩٤٥ عندما حاول زعيم روسيا ان يفرض على ماوتسى تونج فكرة التعايش السلمى . ومنذ ذلك الحين انطلق ماوتسى تونج قدما فى تنفيذ أهدافه .

وبالرغم من هذا كله فان ستالين لم يمنح ماوتسى تونج المعونة المادية والعسكرية والاقتصادية التى كان الشيوعيون بحاجة اليها لنجاح حملتهم الاخيرة ضد الوطنيين . وقد اضطر ماوتسى تونج الى ان يدبر الامر معتمدا على مابين يديه من موارد . وقد سهلت مهمته بفضل الاحداث وخاصة بسبب أخطاء خصومه وادرك ستالين غلطته بعد سنوات ، واصبح فى امكان ماوتسى تونج ان يدعى انه انتصر دون ان يكون مدينا بشىء لاخيه فى العقيدة ستالين .

وكان لماوتسى تونج عدد من الحلفاء الاقوياء ليس لهم صلة بالاتحاد السوفيتى وهؤلاء الحلفاء هم ، التضخم وعواقبه ، والزعماء العسكريون الكبار فى حكومة الصين المركزية . وقد أدى شلل الحياة الاقتصادية بعد الحرب والزيادة المطردة فى ميزانية الدفاع لدى الحكومة الوطنية الى حدوث تضخم اكتسح كل شىء فى طريقه ومع ان هذا جلب الثروة لعدد من المضاربين فانه جلب الشقاء للفلاحين وكذا الطبقات العاملة وبذر الرعب بين أفراد الطبقة الوسطى وأدى التضخم ايضا الى دمار عدد من الصناعات الصغيرة والمتوسطة وافلاس التجار ويأس العمال وبالتالى فتح ابواب الصين الشيوعية لماوتسى تونج . فقد شن ماوتسى تونج حملته وتجنب المعارك الفاصلة والمغالاة فى الاعمال العسكرية .

واستطاع تيار الشيوعية ان يجرف كل شىء ، مدينة بعد اخرى وقرية بعد أخرى . وبالتدريج شكل الشعب باسره طابورا

خامسا قويا . وشعر ماوتسى تونج بارتياح كبير عندما أيدته أغلبية الطبقة البورجوازية .

وازداد عدد مؤيدى الزعيم الشيوعى الصينى عندما تمسك بالناحية الاصلاحية لحركته وليست الاستبدادية . وفضلا عن هذا فان تدخل الولايات المتحدة وما كانت تقدمه من مساعدات لحكومة المركزية كان يزيد من هياج الجماهير وسخطها .

وقرر ماوتسى تونج اخيرا ان يبدأ الاصلاح الزراعى وهوفى طريقه الى الجنوب . وقد انهارت قوات حكومة كومنتانج المركزية عندما علمت بهذا القرار وانضمت الى الشيوعيين بالالاف ومئات الالاف ووصل الامر الى حد استسلام معظم قادة الجيوش الوطنية للشيوعيين مع عدد كبير من قواتهم .

واليوم ، نرى هؤلاء على رأس عدد من المنظمات الشيوعية يحتلون مناصب رفيعة فى الجيش الشعبى . وقدم ارباب الصناعة مصانعهم وخدماتهم للحكومة الجديدة بعد ان وثقوا بوعود الشيوعيين ولم يخسروا شيئا فى ذلك خاصة وأنهم كانوا لا يزالون يواجهون التضخم .

وأصبحت الصين فى عام ١٩٤٩ فى أيدى الشيوعيين .

الفصل الرابع

صراع الايديولوجيات

بدأت روسيا ثورتها فى عام ١٩٠٥ . ولكن هذه الثورة السابقة لاوانها فشلت ، وكان على روسيا ان تنتظر حتى عام ١٩١٧ لاتمام هذه الثورة . وأما الصين فقد أعلنت الجمهورية فى عام ١٩١٢ بزعامة صن يات صن الذى كان بورجوازيا ثوريا . وكان لينين يقدره حق قدره ويعتبره أحد البورجوازيين الواعيين المثقفين . ولكن لينين لامه بسبب افتقاره الى الجراة والى النفاق السياسى وتمسكه المفرط بالامانة والصدق . وانتظرت الصين حتى عام ١٩١٧ لتكتشف قوة الشيوعية العاتية .

وفى عام ١٩٢١ أنشىء الحزب الشيوعى الصينى . واصبح هذا الحزب الحليف الرئيسى لصن يات صن . وكما ذكر لينين فان تاخر الصين فى القيام بثورتها يعود الى بطء التصنيع فى الصين ولما وجد الدافع ، بعد اضرابات العمال وفشلها ، اتجه ماوتسى تونج زعيم الحزب الشيوعى الصينى بدعايته الى جماهير المزارعين . وفى هذه الفترة ، قضى ستالين بقسوة على معارضة الفلاحين . وبعد زحف طويل التجأ ماوتسى تونج ورفاقه الى ولاية شنسى الشمالية فى خريف عام ١٩٣٥ . وكان لدى هؤلاء متسع من الوقت لدراسة المشاكل الزراعية ومعرفة أسبابها الاصلية .

وعندما قرر ماوتسى تونج فى أعقاب الحرب العالمية الثانية

أن يفتح الصين أمام الشيوعية ، وجد وضعا يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذى واجهه لينين فى عام ١٩١٧ .

فقد كانت روسيا القيصرية تضم طبقة من الفلاحين ، وطبقة عاملة صغيرة ، وطبقة وسطى محدودة وسيئة التنظيم وطبقة ارستقراطية قوية .

أما الحال فى الصين بعد ثلاثين عاما حيث كان التقدم الاقتصادى محدودا وكذلك الخدمات الاجتماعية فكان كما يلى : كان الشعب يتألف من أصحاب الاراضى وكبار التجار وافراد الطبقة الوسطى ، طبقة الفلاحين ومتوسطى الحال وطبقة العمال وشبه العمال .

وعندما بدأ الهجوم الكبير ضد تشيانج كاى شيك زحف الفلاحون والعمال كرجل واحد . وهذا يتفق مع واقع الامور ولكن أغلبية الطبقات الاخرى اتبعت هذه الحركة ايضا . ولم يكن باستطاعة ماوتسى تونج أن يخدع نفسه . فقد كان يعلم ان الاجماع الذى حصلت عليه حركته لم يكن نتيجة ادخال الشيوعية فى أذهان الشعب بقدر ما كان تعبيرا عن استياء الشعب غير المحدود من الفساد الذى كان يعم حكومة تشيانج كاى شيك . ولم تكن الايديولوجية ذات اعتبار عند غير اعضاء الحزب من انصار ماوتسى تونج وكان هؤلاء يتشوقون الى تغيير الامور . ولم يكن أعضاء الحزب الشيوعى الصينى قد درسوا مبادىء ماركس ولينين الا من قبيل الواجب فحسب ، والشىء الهام فى هذه الناحية هو الجانب العملى والاستراتيجى للثورة التى تشبه حملة عسكرية امتدت طوال ثلاثين عاما . ولم تترك الاخطار والحملات والحاجة وقتا للقيام بدراسة جديدة للماركسية واللينينية أو الستالينية .

وقد عاد أنصار الحزب الشيوعى الصينى الذين ذهبوا الى الاتحاد السوفيتى فى جولات للحصول على معلومات او للاتصال بالشيوعيين الروس عادوا الى الصين مستائين وهم يشعرون بخيبة

أمل . وقد كان هؤلاء رجال حرب بينما كان الشيوعيون السوفيت مجرد بيروقراطيين عنيدين . وكان الصينيون يرون أن الشيوعية الصينية لا زالت فى دور التكوين ، ولم تكن الشيوعية الروسية المصطنعةلتثير حماسهم .وقد استاء الروسبدورهم منالشيوعيين الصينيين الذين لم يكونوا يعرفون فى الواقع شـيئا عن المذهب الماركسى والذين كانوا يقومون حينئذ بتجربة تنطوى على كثير من الاخطـــار .

واستطاع الطرفان حينئذ أن يدركا أن التناقض بينهما ادى الى تعارض الفكرتين الشيوعيتين الروسية والصينية .

وكان عقد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السـوفيتى ـ والجهود التى قام بها السوفيت للقضـــاء على آثار ستالين أول محاولة من قبل الكرملين لازالة المصاعب القـــائمة بين الروس والصينيين على المستوى الايديولوجى .

ولم يكن من السهل بالنسبة لخلفاء ستالين الاعتراف بالسيطرة الادبية لماوتسى تونج الذى كان يعتبر فى اعين الصينيين بمثابة لينين وستالين معا . ومنذ انتهاء الحرب الوطنية الكبرى ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ عاد الروس الى القومية الاصلية التى كان الحكم القيصرى يشجعها ويمارسها .

وقد ظل الروس فى عهد ستالين ومن بعده قوميين من ناحيـة الشعور والمنطق وهو اتجاه حاربه تروتسكى دائما . وكانستالين وخلفاؤه من بعده يرون أن الاحزاب الشيوعية فى الخارج واسطة لاغاية وقد ادى انتصـار الحزب الشيـوعى الصينى السريـع الكاسح الى قلب تقديرات الكرملين راسا على عقب . وقدحاول الروس فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى اضعاف مكانة ماوتسى تونج عن طريقة فضح ستالين والحط من شـأنه . ولم يكن باستطاعة الصينيين تحمل الاهانة بهذه الطريقة ، فاما

أن يكون مبدؤهم الشيوعى صحيحا واما أن تكون عبادة الفـرد قد لطخت هذا المبدأ كما لطخت الشيوعية الستالينية .

وعكف خروشوف بعد ذلك على دراسـة وسائل توحيـد الاتجاهات والاساليب الخاصة بازالة الخلاف المؤقت بين الشيوعية فى روسيا والصين وبالسير من جديد جنبا الى جنب . وما كان لهذا التخطيط الايديولوجى ان ينجح دون الاقدام على تساهل كبير واتخذ خروشوف الخطوة الاولى فى هذه الناحية ولكن الصـين اصمت اذانها . واستطاعت الحضارة الصينية التى تبلغ من العمر خمسـة الاف سنة أن تسحق الحضارة الروسية التى لا يزيد عمرها عن خمسـة قرون ..

ولم يكن الشيوعيون الصينيون يرغبـون فى أن يستوحوا من الشيوعية الروسية سوى نتائجها الفنية . وقد سلك الاتحـاد السوفيتى من الناحية الايديولوجية طريقا سخيفا وغير منطقى . أما بالنسبة لخبرة الثوريين الروس العملية فى عام ١٩٠٥ ، عام ١٩١٧ فلم يكن لها فائدة لرجال ماوتسى تونج المحـاربين وكان الصينيون يرون أن المسالة ليست مجرد خلاف مؤقت وان هناك خلافا جوهريا فى الموقف بين الثورتين الروسية والصينية . وفى عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٢٢ كان البلشفيك قد استأصلوا جميع آثار البرجوازية . وقد لقى رجال الصناعة واصحاب المتاجر نفس المصير وأرسلوا الى المنفى . وكانت النتيجة كارثة على روسيـا وعلى الشيوعية آنذاك : وقد انتشرت المجاعة وتوقفت الصناعة وانتشرت البطالة وعم السلب والنهب والفوضى . واعلن ستالين « السياسة الاقتصادية الجديدة » بقصد بعث النشاط الاقتصادى واحياء الامل فى النفوس ..

وفى هذه الاثناء فقدت روسيا سنوات مزدهرة واقتربت الشيوعية من الافلاس التام . ولا زالت روسيا بعد اربعين سنة تعانى من اثار هذه السياسة القصيرة النظر . حقا ، أن التصنيع الذى فرضه ستالين غير معالم روسيا . واعتقدت الصين أنها تسـتطيع ان

تصبح دولة صناعية فى مدى ربع قرن . وعدا ذلك ، فان الصين تبينت خطأ بعض أساليب الثورة الروسية فرغبت فى ابرازذلك على أساس انه مثل سيء . وقدم الشيوعيون الصينيون اساليبهم المرنة المفيـــدة ليدرسها الروس . وكان الاوان قد فات بالنسبة لروسيا للاستفادة من هذه الاساليب ، ولكن الاساليب الصينيــة ربما كانت ذات نفع فى دول الستار الحديدى او الدول المتخلفة

ونصب الشوعيون الصينيون انفسهم حماة للدول المتخلفةلنفس السبب الذى من أجله فعل الاتحاد الســـوفيتى ذلك . وقد أصر شـــو اين لاى وليو شاوتشى على هـذه المسأله فى اجتماعهما مع خروشوف وبولجانين ، ولم يخفيا عزمهما على استخـــدام قوة الصين الصناعية التى كان السوفيت يديرونها حينئذ لمســاعدة الدول المتخلفة مثلما كان يفعل الاتحاد السوفيتى . وبلغ بهـــم الامر الى حد أن الصينيين أعلنوا انه اذا كان الشعب السوفيتى قد ضحى فى عهد ستالين بحاجته الى البضائع الاستهلاكية من اجل مواجهة ضرورات الدفاع الوطنى فيجب فى عهـــد ماوتسى تونج — التضحية بجزء من المواد الاستهلاكية الصينية فى سبيل سد حاجات الدول المتخلفة . وقد أثار هذا الاصرار على موضوع الدول المتخلفة قلق الكرملين الذى ثار لذلك واصبح من الصعب تهدئته : فقد بدأت الصين تهتم اهتماما بالغا بالعالم الخارجى .

وكان على خروشوف والكرملين الاعتراف بالحقائق . وكان الصينيون فى موقف يتيح لهم حق المساهمة فى وضع خطة سير الشيوعية العالمية . وبدأت موسكو تشن حملات كبرى فى الشرق الاوسط والهند واندونيسيا والشيء المهم فى الموضوع هو أنموسكو اخذت تخفى خططها الدبلوماسية عن بكين مثلما فعلت الصين مع روسيا اثناء معالجتها لمسألة التبت ..

وكان التنافس السلمى الذى تحدث عنه خروشسوف بين الرإسمالية والاشتراكية قد وجد فعلا داخل المعسكر الاشتراكى نفسه بين الروس والصينيين . وظهر هذا التنافس منذ عام ١٩٥٤ فى الميادين السياسية والايديولوجية والاقتصادية ومع ان النظم الشيوعية فى الصين وروسيا قامت طبقا لايديولوجية واحدة الا أنها فى الواقع تحمل فى طياتها ايضا كثيرا من أوجه الاختلاف.

وفى مايو ١٩٥١ تم للصين احتلال التبت . وبذلك امتدت امبراطورية ماوتسى تونج الى حدود الهند وافغانستان . واقتربت من المشرق الاوسط . ومع ان الصين لم تكن منظمة وكانت قد تخلصت لتوها من اليابانيين والحروب الاهلية — الا انها اصبحت أخيرا دولة كبرى . .

وكان على ستالين المصاب بدآء عدم الثقة المزمن أن يحاول كشف الغموض الذى يحيط بحليفته الايديولوجية الكبرى : الصين .. وكان ماوتسى تونج يعتمد على فترة سلم طويلة لينظم امبراطوريته ، ولكن لم يكن لديه متسع من الوقت ..

ففى شهر مايو ١٩٥٠ اتمت القوات الشيوعية « تحرير» شبه قارة الصين واستولت ايضا على جزيرة هاينان ثم لم تلبث أن نشبت حرب كوريا فى ٢٥ يونيو ١٩٥٠ ..

ولجأ ستالين ذو المبدأ الميكيافلى الى تفجير جهازه الجهنمى الجديد . وكان من الواضح ان المسألة الكورية موجهة ضد نفوذ واشنطن فى المحيط الهادى ..

وأصبح هذا النفوذ موضع امتحان فى طوكيو وفورموزا والفليبين وجنوب شرق آسيا . ومع ذلك فقد رأحت الصين الشيوعية أول ضحية لحرب كوريا ..

وكان الجميع يتساءلون عن السبب الرئيسى الذى جعل .

الكرملين يوحى للكوبيين بالزحف على سيــول ..

وكان ستالين كثير الشكوك وظل كذلك فترة طويلة من الزمن، وكانت سياسته تقوم على الذكاء السلبى . وبينما كان تروتسكى يتطلع الى الامام وينتقل من دافع الى دافع نحو مستقبل لم يكن فى أستطاعته التحكم فيه بسبب جراته الشديدة ، فان ستــالين كان على عكس ذلك تماما ، فقد كان منطويا على نفسه لايميل الى التوسع ، وكان يحسب حساب حركاته وسكناته على ضوء حركات خصومه وسكناتهم أو ما يتوقعه منهم من تصرفات . وكان ستالين يشعر بارتياح عندما تتحقق احدى خططه رغم ما يصادفه من عقبات حقيقية أو وهمية وكان لايثق بالاخرين كما كان لايثق فى نفسه .. وكان ينسب لخصومه — من أفراد أو دول أجنبية — امكانيات أكبر من الواقع . وبفضل ذلك استطاع ان يبقى .. وبالنسبة لهدف ستالين الاكبر — ولارضاء مطامحه الشخصيــة — فانه كان يرى أن غزو العالم أقل أهمية من تمســـكه بدوره التوجيهى داخل الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشيوعى .. وفى دفاعه عن نفسه ضد زوجة لينين التى كان يبالغ فى تقدير نفوذها على زعيم الثورة الروسية ، كان ستالين يستطيع أن يضم لينين الى صفة . وبالتنازل لتروتسكى فى اللحظات المناسبة اســتطاع التخلص منه .

***

وعندما أودع ثقته كلها فى توخاتشيفسكى عاد فسحبها منه بصورة وحشية وجعل نفسه كما لو كان ضحية هذا المارشــال الشــاب ..

ولم يكن ستالين يحتمل المنافسة الداخلية ، ولكنه اعترف بوجود روزفلت وتشرشل وحتى هتلر . وكان هؤلاء جميعا أعضاء فى المعسكر الاخر ، وكانوا يضايقون بعضهم البعض ولكن نفوذهم وقوتهم او غباؤهم لم يكن يضايق ســـتالين وما كانت خيـــلاء

ستالين لتطيق وجود منافس له داخل الاتحاد السوفيتى أوالعالم الشيوعى وتحمل ستالين التلاميذ والاتباع الذين كان من السهل قيادتهم مثل زادانوف ومالينكوف .. ولكن كان عنده كراهيـــة صبيانية لنظرائه من غير الروس مثل تيتـو الذى كان أول ضحياه أو كان على الاقل ضحية مؤقتة ولكن تيتو استطاع فيما بعد ان يرد على ستالين بنفس طريقته . ووجهت الى ديمتروف ايضـا تهمة كاذبة وهى انه كان يريد منافسة ستالين ولذلك اختفى من المسرح

وجاء دور ماوتسى تونج .. ولم تكن مخاوف ستالين مبالغا فيها للوهلة الاولى . فقد واجه عملاقا على راس حزب كبير ودولة مترامية الاطراف . وقد كان تيتو شخصية قوية ولـكنه يتزعم دولة تضم ١٨ مليون نسمة فقط وهى حقيقة أسف لها الزعيـم اليوغسلافى .. وكان يحلم بتوحيد البلقان تحت حكمه . وقد حقق ماوتسى تونج حلما اكبر من ذلك بكثير ، فقد انشـــا امبراطورية ضخمة . وفى خلال بضعة أشهر خضع لسيطرة ماوتسى تونج ستمائة مليون نسمة . وفى خلال اشهر اصبح الحزب الشيوعى الصينى أكبر واقوى الاحزاب الشيوعية فى العـــالم ، وأكثرها شـــبابا ..

وفى شتاء ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠ قام ماوتسى تونج بزيارة لستالين . وقد بقى ماو فى الكرملين اربعة اشهر بعد ان اتخذ احتياطات ضد اى مفاجأة غير سارة قد تقع فى غيابه واستطاع الزعيمان أن يفهما بعضهما البعض . ولم يعرف ماوتسى تونج شيئا جديدا عن ستالين ولكن الزعيم الصينى أدهش الزعيم السوفيتى فى كثير من النواحى فقد اذهل ماوتسى تونج ستالين بنبوغه الادبى واساليبـه العالية ومرونته وصبره وخاصة بآرائه الواسعة بشأن المستقبـل .. ورأى ستالين أن ضيفه ليس مجرد نظير له بل سيدا . وقد انتعش ثينين وعاد الى الحياة . وهذا رأى ستالين فى ماوتسى تونج ــ ولم

يعد يجدى المضى فى المراوغة . ومر ستالين بأطول فترة من الحزن والغم ثم أعد خطتـــه .

وفى الخامس والعشرين من يونيو ١٩٥٠ علم ماوتسى تونـج وقد اعتراه الذهول أن قوات كوريا الشمالية قامت بغزو كوريا الجنوبية وزحفت على سيول . وبطبيعة الحال ، أرسلت أسلحة سينية الى كوريا الشمالية فى أوائل ١٩٥٠ لجيش كوريا الشمالية الشـــعبى . وكان من المنتظـر حدوث قلاقل عـــلى جـــانبى خط التقسيم ٣٨ نتيجة لرحيل القوات الامريكية ، ولكن هجوم كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية اخذ بكين على حين غرة .. فاتصلت سلطات بكين على الفور بالكرملين . وتظاهرت موسكو بالدهشة ايضا ، ولكن كان من العسير تصديق أن زعمـــاء كوريا الشمالية شنوا العدوان على حكومة سنجمان رى دون استشارة موسكو أو بكين قبل الاقدام على هذا العمل .

وعلمت بكين أن «بعض» زعماء روسيا أخطروا بهذه العمليـة ولكنهم فشلوا فى تحـــذيرهم زملاءهم فى الصـــين فى حينـــه .. وكان ستالين يبدو مندهشا أكثر من غيره . ومع أنه لم يكن يسمح لمرؤوسيه بالاقدام على اى خطوة مهما صغر شأنها دون اذنه الا انه لم يتخذ اى اجراء ضد الزعماء السوفييت المعنيين بالامر .

وأدرك ماوتسى تونج ــ وربما جاء هذا بعد فوات الاوان ــ أن جمهورية الصين الشعبية قد ووجهت بحقيقة واقعة من جانب اخوانها فى كوريا وأبناء عمها فى موسكو . ولما كانت الصين ترى أن الضرورة تقضى بأن تظهر للعالم أنها حريصة على وحدة العالم الشيوعى فانها امتثلت لموسكو بعد أن قرر الكرملين تقديم كل معونة ضرورية لكوريا الشمالية . وكان على الصـــين ان تقـــدم الجانب الاكبر من هذه المعونة .. .

ان تطور وتقلب الحرب الكورية أمر معروف والنتيجـــة

المحددة لهذه العملية الدموية هي أن الصين اضطرت الى تأجيل تطورها الاقتصادي والاجتماعي . والعسكري عدة سنوات ثمينة .. وقد دفع ماوتسي تونج ثمنا غاليا مقابل تلك الجريمة المزدوجة وهي انه يملك عقلا خاصا به ، ولاستيلائه على السلطة بسرعة اكبر مما توقعها ستالين ..

وفي هذه الاونة اتفق غضب ستالين مع مصالح روسيا الدائمة والعاجلة .. وكان الروس حينئذ قد فرغوا توا من اعادة بناء بلادهم ولكن اقتصادهم كان لايزال ضعيفا وكانت الولايات المتحدة متفوقة عليهم في المجال الذرى في عام ١٩٥٠ ولهذا فلم يكونوا تواقين بان تكون لهم جارة شيوعية كبرى موحدة مثل الصين ، لها نفوذها في اسيا ـ نفوذ شعب كبير أعطى لنفسه حكما شيوعيا يتفق وحاجات اسيا ويحكمه فيلسوف وشاعر وفق افضل تقاليد كرنفوشيوس .

وكانت الولايات المتحدة هي الضحية العاجلة لهذا النفوذ ، ولكن روسيا أصبحت الضحية الاخيرة . وهكذا ، بعد عام من المسالة الكورية ، أدركت موسكو وكلها دهشة أن بكين تفاوضت مع التبت التي اعترفت بسيادة الشيوعية الصينية .. وأدرك الكرملين أن ماوتسي تونج قام بأول خطوة خوفا من أن يرى الشيوعيين في التبت وقد أصبح لهم كيان مستقل وان يعلنوا تشكيل جمهورية شعبية للتبت الخارجية مثلما حدث في جمهورية منغوليا الخارجية ـ التي كانت لاغراض استراتيجية تابعة مباشرة لموسكو ..

أصبحت العلاقات بين موسكو وبكين تتسم بالتحفظ .. وعندما سويت المشكلة الكورية راحت الصين تفكر في اعادة تنظيم وبناء نفسها . ولكن كانت هناك حرب قائمة على حدودها الجنوبية : وهي حرب الهند الصينية . ومع ذلك فان هوتشي منه كان أعقل من حكام جمهورية كوريا الشعبية . فقد كان هوتشي منه يتبع سياسة مستقلة عن ستالين واستمع لنصح بكين ..

وفى ذلك الحين مر العالم الشيوعى بأكبر أزماته التى أثارها هوس ستالين وحبه للاضطهاد . وبعد ان شعر زعيم الكرملين ان زعماء الشيوعية من غير الروس - تيتو وماوتسى تونج وهوتشى منه خرجوا من تحت سيطرته - عمل على مهاجمة اتباعه فى الدول الديموقراطية الشعبية فى شرق اوربا فاعدم وسجن راجك وجومولكا وانا بوكر وغيرهم ..

وعند ما مات ستالين شعر المعسكر الشيوعى أن روسيا قد فقدت شيئا من مكانتها منذ ذلك الحين أخذت بكين تعامل موسكو معاملة الند للند ، وكان الروس الذين بدأ ماوتسى تونج يفاوضهم هم تلاميذ ستالين ، مثل مالينكوف وبولجانين وخروشوف وميكويان .

ولم يعد هناك داع لذهاب ماوتسى تونج الى موسكو . فقد كان على زعماء الكرملين الجدد أن يزوروا ماوتسى تونج البابا الجديد للعالم الشيوعى . ولم يتعجل ماوتسى تونج الاموروعرف كيف يتجنب اذلال الزعماء السوفيت الذين مازالوا فى أول الطريق وأمامهم صعوبات نجمت عن اختفاء ستالين الذى كان يوصف بأنه لابديل له ولم يستطع ماوتسى تونج أن يدعى انه الخليفة الروحى المؤقت لستالين . فقد كان عليه أن يفكر فى الصين اولا . وكانت الصين فى عام ١٩٥٣ تفتقر الى كل شىء . ونتيجة للحصار الذى فرضته أمريكا على الصين فقد كانت حكومة بكين فى حاجة الى الاتحاد السوفيتى الدولة الكبرى التى تستطيع مساعدتها فى تجنب الاختناق . ومن الواضح ان واشنطن لم تكن فى ذلك الحين تنتهج سياسة حكيمة وكان فى استطاعة الولايات المتحدة التفاوض مع الصين فى المجال الاقتصادى واستغلال حالة الفوضى التى عمت الاتحاد السوفيتى والعالم الشيوعى نتيجة وفاة ستالين

.. ان تستعيد بسهولة ما خسرته نتيجة سذاجتها وقصر نظرها ولكنها لم تفعل شيئا من هذا القبيل .

ووافقت موسكو على طلبات بكين . ولكى تستعيد روسيا جانبا من نفوذها فقد تعهدت بأن تزود الصين بمعونة اقتصادية ضخمة .. ولكيلا تفقد روسيا ماء وجهها فقد كان عليها أن تساعد الصين على أن تصبح عملاقا ، وان تكتسب صداقة هذا العملاق ، ولكن هذه الامانى لم تكن سوى الفاظ محشوة بالنفاق .

وقد انقلب التوازن الذى احتفظ به ستالين بين روسيا والصين داخل المعسكر الشيوعى لصالح الصين .

- ومنذ عام ١٩٥٣ ضاعف الصينيون سرعتهم فى العمل .. وعندما انتهت حالة الطوارىء الخاصة بكوريا وسويت مشكلة الهند الصينية فى عام ١٩٥٤ اعتبر الصينيون أن حدودهم أصبحت فى أمان . ولكن كانت لاتزال هناك مشكلة فورموزا التى تتطلب تسوية وكان الممكن استخدام فورموزا مادة للمساومة أوكوسيلة للمصالحة مع الغرب . كما أن مشكلة هونج كونج كانت لا تزال أيضا باقية بدون حل ..

وسارعت بريطانيا العظمى الى الاعتراف بحكومة بكين والعهد الجديد ومقابل ذلك احتفظت بهونج كونج . واصبح جبل طارق اسيا - هونج كونج - يشكل احدى رئتى جمهورية الصين الشعبية .. وقد اثارت العلاقات التى قامت بين لندن وبكين قلق موسكو . ولحسن حظ الكرملين ، فان وزارة الخارجية الامريكية كانت تشعر بنفس القلق . وأثبت هذا الشك المزدوج أن الصين صممت على أن تسلك طريقا ديبلوماسيا خاصة بها . ووجدت الصين فى بريطانيا شريكا كانت تنتظره منذ وقت طويل . ونظرا لان مصالح بريطانيا هناك كانت قد سويت منذ زمن وجيز ، فلم تبق نقاط خلاف وتوتر بين بكين ولندن كتلك التى اساءت الى

العلاقات بين الشعبين منـــذ اكثر من مائة عام . واستطـــاع الديبلوماسيون القدامى فى العالم ـ الانجليز والصـينيون ـ أن يبدأوا من جديد بسهولة . وقبلت الواقعيه البريطانية اســتبعاد الشعوب الغربية الدائم من أرض الصين . وكانت بريطانيا الدولة البيضاء الوحيدة التى أحتفظت بجزيرة صينية بموافقة بكين .. ولم تتمتع روسيا نفسها بمثل هذا الامتياز ..

وقد حالت الاتفاقية الضمنية بين بكين ولندن دون عزلة الصين الشيوعية عزلة تامة . واعترفت روسيا والجمهـوريات الشعبية الديمقراطية بذلك ولم تحاول روسيا أن تضمن الصين لدى الدول خارج المعسكر الشيوعى والتى للاتحاد السـوفيتى علاقات حسنة معها . وقد أدى اعتراف لندنبالجمهورية الشعبية الصينية الى اعتراف عدد من الدول الغربية بها . وأصـبح فى مقدور بكين أن تنتهج سياسة مستقلة دون صعوبة وأن تضـمن لنفسها علاقات اقتصادية متينة فى أنحاء العالم .

وكان الحصار الاقتصادى والسياسى الذى فرضـته أمريكا ضد الصين يخدم سياسة موسكو . فقد استفاد الروس من موقف الولايات المتحدة العنيد كى يظهروا أنفسهم بمظهر الأصدقاء الذين لا غنى عنهم للصين الشيوعية . كما أن فرموزا وتشيانج كاى شيك قدما خدمة غير مباشرة للكرملين . وكان وجود الصين الوطنية فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن حائلا دون قبول الصين الشيوعية فى هذه المنظمة الدولية وقد اتاح هذا للاتحاد السوفيتى الفرصـة ليكون الممثل الوحيد للعالم الشيوعى .

وعندما بسط ماوتسى تونج سلطانه فى النهاية ، أعتقـدت موسكو أن الصين ستطلب الى الاتحاد الســوفيتى والحـزب الشيوعى السوفيتى تزويدها بالمدربين وكبـار الموظفين ورجـال الاقتصاد والمستشارين العسكريين .

ولكن ماوتسى تونج اقتصر على طلب مستشارين عسكريين ومهندسين اكفاء وفرض على الجميع نظاما شديدا وامرهم بالتقيد بواجباتهم الفنية . وفى الواقع لقد أرغم المستشارين المدنيين والعسكريين السوفيت على العمل الشاق دون أن تتاح لهم فرصة نشر أراء حكومتهم أو ان يكون لهم تأثير خطير على سياسة الصين .

وقد أضيف الى خيبة أمل موسكو هذه عدم استدعاء اى دبلوماسى سوفيتى لتنظيم وزارة الخارجية فى بكين . وقد حمل الصينيون التحالف الذى عقدوه فى ١٤ فبراير ١٩٥٠ مع روسيا على محمل الجد ولكن لم يكن هناك ما يدعو الى استخدام هذا التحالف ذريعة لكى تخضع بكين لسياسة موسكو . ولم يعط الخبراء العسكريون السوفيت أية مناصب كبيرة ، ولم يسمح لهم بالاشتراك فى المناقشات السرية التى تجريها هيئة اركان الحرب الصينية .

ومن ناحية أخرى كان على الروس أن يبذلوا جهوداً جبارة فى الانتاج الاقتصادى لسد حاجة الصين .

ومضى زعماء الكرملين قدما فى اعادة تنظيم الدولة والحزب واختاروا من يخلف ستالين بطريقتهم الخاصة . ولم يتضح الا بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى الروسي وبعد تصريح خروشوف المشهور أن الاتحاد السوفيتى لم يفقد سيطرته على المعسكر الشيوعى أو على الصين فحسب بل انه منذ ذلك الحين فصاعدا اصبح لبكين من النفوذ ما يكفى للتاثير على سياسة روسيا وموقف الحزب الشيوعى الروسى .

ولكن لا تزال روسيا بدون شك اقوى دولة اشتراكية تملك اكبر قوة صناعية وعسكرية . ولكن الاتحاد السوفيتى متخلف فى مسالة الايديولوجية ــ وخاصة عن الصين .

الفصل الخامس

التنافس الاقتصادى

اوشك اتباع ستالين فى الصين أن يقضوا على ماوتسى تونج بسبب اصراره على تطبيق الشيوعية على المزارعين وليس على الطبقة العاملة . ولم تكن الصين فى القديم دولة رأسمالية بل دولة شبه استعمارية واقطاعية . وقبل استيلاء الشيوعية على مقاليد الامور ــ اى قبل عام ١٩٤٩ ــ كانت الرأسمالية متطورة تطورا ضيقا فى مجال الصناعة ولكن التقدم كان منعدما فى الزراعة . وكانت الصناعة الحديثة تشكل ١٠٪ من اقتصاد الصين الوطنى القائم على طبقة المزارعين وانتاج أصحاب الحرف من الصناع . وكان رأس المال الاجنبى يملك العناصر الهامة فى الصناعة .

وقرر الشيوعيون الصينيون تحقيق الاشتراكية بأن يجعلوا اقتصادهم يجتاز مرحلة رأسمالية جديدة . أى أعيد تمهيد طريق الاشتراكية بالتجربة الرأسمالية ، وأما الثورة الروسية فقد استأصلت بطريقة وحشية جذور الرأسمالية تاركة ثغرة كان لا بد من سدها بالجهود الجبارة الامر الذى يتطلب تأخيرا مدته عشر سنوات فى تحقيق رأسمالية الدولة السوفيتية . وقد رغب الصينيون فى تجنب ايجاد هذه الثغرة وهذا التأخير فى تحقيق الاشتراكية الحقيقية . وقد قرر الصينيون أن يسمحوا بقيام عدد من المشاريع الحرة تحت رقابة مشددة من الدولة الامر الذى اثار مخاوف ستالين وأنصار مذهبه .

وفى ديسمبر عام ١٩٣٨ كتب ماوتسى تونج . يجب على الثوره الديمقراطية الجديدة أن تضع رأسمالا كبيرا تحت ادارة الدولة ؛ وفى الوقت نفسه يجب عليها أن تحافظ على المشاريع الراسمالية الخاصة بصفة عامة وأن تتحاشى الغاء اقتصاد المزارعين الاغنياء . وهذا النوع الجديد من الثورة الديموقراطية سيفتح المجال امام الرأسمالية ولكنه سيوجد ظروفا ملائمة للاشتراكية .

وهكذا أراد ماوتسى تونج أن يكافح النار بالنار . فزرع جرثومة اصطناعية من الافضل ازالتها . وانشأ طبقات كان من الافضل اثبات عدم جدواها . وهذه الطريقة الجريئة فى التفكير يتبعها جراة أكثر فى تنفيذ الخطة . واشترك ستمائة مليون صينى فى هــذه التجربة الفريدة من نوعها . وارتعدت فرائص الكرملين ، فقد كان هذا أكثر من هرطقة وخروج على المذهب . وكان انحراف تيتــو تافها اذا قيس بانحراف الصين . وقد أدت لجان الادارة التى أنشأها تيتو الى صــدور قــرار من موســكو ضــد الحكم اليوغوسلافى . ولكن كان لا بد لستالين وتلاميذه من التغاضى عن تجربة ماوتسى تونج وعدم اظهار السخط عليها . وكان من الواضح أن الشيوعية الصينية استفادت فائدة مزدوجة : فهى قداستفادت من تجارب الشيوعية الروسية وتجنب اخطائها الفادحة ، وطبقت فى مجال الايديولوجية العامة ثروات الخيال والدهاء والذكاء التى عرفت بها الصين منذ خمسة آلاف سنة . وقد ذهل ستالين عندما عرف برنامج ماوتسى تونج النهائى : ان الديكتاتورية الديمقراطية الشعبية فى الصين هى سلطة الدولة المؤلفة من جبهة متحدة تضم الطبقة العاملة المزارعين ، والطبقة الوسطى البسيطة والبرجوازية الوطنية والعناصر الديمقراطية الاخرى فى الصين .

وكان هذا كله بعيدا عن النظام السوفيتى الذى فرضه ستالين وقد فوجئت موسكو بالبرنامج الصينى . وقد استطاعت الشيوعية الصينية أمام عالم راسمالى كانت فيه فرصة الاختلاف والاضطراب

ان توجد ان لم يكن حلا ــ فعلى الاقل مشروعا مغـريا يسـتحق الدراسة والتعديل والتطبيق وفقا للوضـع الداخلى للبلدان أو الاحزاب فى انحاء العالم التى يعنيها الامر . وفى نفس الوقت فان التجربة السوفيتية التى باتت غير جذابة بفضل طول عهد ديكتاتورية ستالين ــ تضاءلت أمام التجربة الصينية التى كانت منطقيـة وجوهرية . وراح الفلاسفة الماركسيون فى روسيا وغيرها من الدول يتشاورون بسرعة . ولكن هذه المشاورات لم تؤد الى شيء وسارت الصين فى تجربتها سواء رضيت موسكو أم كرهت . وكان هـذا بمثابة هزيمة للكرملين لم يسبق لها مثيل . وانتصرت الاشتراكية الصينية بطريقتها الخاصة وأضر ذلك بالمبـادىء اللينينية ــ الستالينية العقيمة .

وظهر مبدأ شيوعى جديد فى أفق الشرق ــ داخل سور الصين العظيم .

وبعد موت ستالين ، كان هناك رأيان فى الكرملين حول الوضع فى الصين ، ففى ناحية : كان هناك أنصار فكرة التبرؤ فورا من الشيوعية الصينية ، وفى ناحية أخرى كان هناك من يفكر فى ضرورة الاعتراف بالحقائق . وقد انتصر أصحاب الرأى الثانى . وكانت الرحلة التى قام بها خروشوف ــ وبولجانين الى بكين تؤيد هـذا الاتجاه . ولكن على الرغم من أن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى نادى بازالة مذهب عبادة الفرد وبذلك حـاول مهاجمة العملاق ماوتسى تونج فانه فى الوقت نفسه قلل من شأن العقـدة الستالينية ، وقد بعث هذا كثيرا من السرور فى نفس زعيم الشيوعية الصينية . وفى بكين قبل الزعماء السوفيت شروط الصين دون جدال . وأعلن ان المعونة الاقتصادية السوفيتية للصين ستستمر كما كانت فى الماضى ان لم يكن أكثر . ومقابل ذلك تعهد زعمـاء الصين بتأييد خروشوف وتدعيم مركزه فى الحزب الشـيوعى

السوفيتى فى وجه خصومه الذين كانوا من انصار سياسة التشدد ازاء الشيوعيين الصينيين .

وقد اتاحت هذه المصادفة السعيدة الفرصة للقضاء على الجماعة المناوئة للحزب الشيوعى السوفيتى فى صيف ١٩٥٧ . واعتقد خصوم خروشوف أن التنديد بأنصار ماوتسى تونج قد يؤدى الى حركة انفصال هامة بين الشيوعيين الصينيين تعارض سياسة زعيمهم الناعمة وتؤدى أيضا الى جمع شمل العناصر الستالينية من جديد مما قد يترتب عليه اعادة بعض النفوذ الى موسكو والحزب الشيوعى الروسى ولكنهم كانوا يخدعون أنفسهم .

وكان ماوتسى تونج يعتزم فى مثل هذه الحالة ان يضرب بيد من حديد على المتمردين وأن يتحول الى لندن — ليطلب من الغرب باستثناء الولايات المتحدة مده بمعونه كانت الصين فى حاجه ماسة اليها ، وهنا لم يكن ماوتسى تونج لينردد فى تقديم مقترحات مغرية الى تشيانج كاى شيك يؤكد له فيها انه سيبتعد عن جزيرته . ولما راى الامريكيون فشل التحالف بين موسكو وبكين اظهروا شيئا من الخيال فى استغلال الموقف . ولكن خروشوف تجنب الكارثة بما أبداه من تساهل ، واستطاع الركب الروسى الصينى الروسى الصينى ان يستانف سيره الى الامام .

وفى هذه الاثناء كان الجهاز الصينى يسير مسرعا لا يلوى على شيء ، ففى مؤتمر باندونج ومؤتمر جنيف نصب الصينيون انفسهم حماة لآسيا . ولم تكن رحلات خروشوف الى الهند وافغانيستان كافية لازالة هذا الانطباع من اذهان الاسيويين . وقد تمكنت روسيا بفضل حرب السويس وهزيمة الغرب فى الشرق الاوسط أن تستفيد من ازدياد نفوذها فى الدول المتخلفة والمحايدة . وهكذا تعقدت الخلافات العقائدية بين الصين وروسيا نتيجة الخلافات السياسية والدبلوماسية . واصبحت موسكو تدرك ان الصين أصبحت فعلا من القوة بحيث لم تعد ملزمة باتباع سياستها

وقراراتها فى السوق المشتركة للايديولوجية الشيوعية . وكان شواين لاى يرى أن قيمة ستمائة مليون صينى أكبر بكثير من قيمة مائتى مليون روسى . ولم تستطع بكين أن تنسى المسألة الكورية فقد اندفع المتطوعون الصينيون لحماية كوريا الشمالية وحدود الصين الشمالية وخدمة الايديولوجية الشيوعية فى آن واحد .. ولكن الروس لم يرسلوا رجلا واحدا ولم يكن الروس يرغبون فى أن يظهروا للاسيويين انهم يحاربون عنصرا أبيض آخر هو الامريكيون وأما بالنسبة للصين ، فان الامريكيين لم يكونوا مجرد مستعمرين وانما كانوا أيضا غزاة ينتمون الى جنس آخر . وهكذا ضرب الصينيون الروس بأسلحتهم . وكانت الصين على ثقة من أنها تستطيع ان تقوم بالمهمة فى آسيا بنفسها دون مساعدة من أحد . كما كانت تعتقد أنها تستطيع أن تنظم وتحكم وتطور قارة آسيا التى يملكها الاسيويون دون غيرهم من سكان الارض .

وفى ذلك الحين ، اكتشف خروشوف سيبيريا . وأراد ان يجعل من تلك المنطقة الهائلة الخالية من السكان تقريبا — والتى لم تستغل بصورة تامة — روسيا ثانية — روسيا آسيوية تقدم للاسيويين معونتها ومشورتها . ووجه خروشوف نداء لشباب روسيا طلب منهم فيه الذهاب الى «الدورادو» الجديد لتعمير الجزء الروسى الهام من آسيا . ولكن شباب روسيا تظاهروا بعدم سماع النداء وكان الشبان قد أصبحوا محافظين وطبقة وسطى . ولم يكن هنالك داع لتعبئة الشباب بالقوة أو وضعهم فى معسكرات اعتقال ، لان هذا من شأنه أن يوجد انطباعا سيئا لدى الشعوب الاسيوية التى بدأت تقتنع بمنافع الحضارة السوفيتية . وتتبعت بكين المناورة دون اهتمام . واخذت القوة المعنوية للكرملين تهبط شيئا فشيئا . وتبين للروس ان مالم تستطع المانيا النازية اواى بلد راسمالى آخر أن يفعله قد حققه اخوانهم «الصينيون» وكان موقف الصينيين ازاء الرعيل القديم من الشيوعيين الروس الذين

لا يزالون على قيد الحياة هو القضاء عليهم قضاء مبرما .

وفى هذه الاثناء ، تطور الاقتصاد الصينى بسرعة كبيرة . وقد تعاون قطاعا الاقتصاد الوطنى : الرأسمالى وما تملكه الدولة ـــ معا وفى نفس الوقت دخلا فى تنافس مفيد . وقد وجه الاقتصـــــاد الصينى بحكمة . وكان الاتحاد السوفيتى لا يزال يحاول الانتهــاء من انشاء طبقة الصناع . وفى الصين كان النشاط الحرفى مسموحا به ولم يكن احد يعتبر من أعداء الثورة . ورغم أن الحـــــكومة الروسية كانت تتربع على دست الحكم منذ أكثر من اربعين عاما . وكان التصنيع قدازدهر ازدهاراعظيما ، فانالبضائع الاستهلاكية كانت شحيحة مثلما كان عليه الحال قبل عشرين أو ثلاثين عاما .

ولقد ضمن الصناع فى الصين لبلادهم ولحكومتهم انتـــاجا معتدلا أتاح للسكان الحصول على ما هم فى حاجة اليه ريثما تتطور الصناعات تطورا أفضل .

وكانت حكومة الصين تبذل جهدها لكى تجعل الفترة الانتقالية محتملة من قبل الشعب لكى تتحاشى اثارة استياء الجماهير .

ولم تتخذ الشيوعية الستالينية مثل هذه الاحتياطات. ولذلك فان الهدوء النسبى للوضع الاقتصادى فى الاتحاد السوفيتى يعود الى حد ما الى ما كان للتجربة الصينية من تأثير على سادة الكرملين وقد أعجب الصينيون بما يتحلى به خروشوف وميكويان من روح الادراك العملى مما أوقع اليأس بفلاسفةالحزبالشيوعىالسوفيتى الذين كانوا قد بدأوا خلال السنوات الاخيرة يفقـدون مكانهم فى موسكو . وقد اصبح هؤلاء اليوم مجرد عناصر ثانوية فى الحزب بعد أن كانوا يثيرون الرعب ابان حكم ستالين وبعد وفاته . وليس الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى نواة ايديولوجية مثلما هو منظمة بيروقراطية تعالج بحماس المسائل اليومية ويمكننا أن نشعر هنا أيضا بنفوذ بكين .

ففى اثناء فترة البناء الاشتراكى - وهكذا يقول الفلاسفة الصينيون - يجب ان تعطى الاولوية للادراك العام ، ادراك الوقائع وعندما يتم هذا البناء يستطيع المرء أن يحلم ، أو أن يطبق أحلامه .

وعندما تهب الرياح من سور الصين العظيم مرة أو مرتين فى السنة ، فانها تكتسح بعض الاشياء العفنة فى موسكو . وهكذا حدث التحول . وراح الراسماليون الصينيون يتدفقون على موسكو من بكين ونانكينج وكانتون ، وقد ذهب هؤلاء لشراء بعض الاشياء لمشاريعهم أو بيع منتجاتهم للروس . وقد اضطر المسئولون الروس الذين كانوا منذ سنوات مضت يستقبلون الوفود الصينية من الحزب فى جو من المشاركة الودية - الى الترحيب بهؤلاء الراسماليين الذين لا يعرفون شيئا عن الشيوعية بينما هم ليسوا اعداء لها بالفعل . وكان رجال الصناعة الصينيون الاغنياء والذين يرتدون الملابس الفخمة وينتمون لبلد شيوعى بمثابة التحدى الحى للجماعات الروسية التى ترتدى الملابس البالية . وكان الروس يشعرون بالدهشة حيال نوع الشيوعية التى طبقها ماوتسى تونج العظيم فى بلاده .

وكان الروس يظنون فيما قبل ان سور الصين العظيم لايضم مثل هذه الاسرار العديدة . وهكذا ، انطلقت من الشرق حرية العقل .

ولمكافحة هذا الاغراء القادم من الشرق أو من الشرق الاقصى، اعتمد زعماء الكرملين على ما حققه علماؤهم من أعمال باهرة وعلى الصواريخ العابرة للقارات والاسلحة الضخمة . وعندما أبدى خروشوف نواياه فى هذا الامر جاء رد بكين سريعا : تعطى الاولوية للدفاع الوطنى ، ان استقلال البلاد رهن بقوة جيشها وىكن كان من العسير ان تشارك الجماهير الصينية فى هذا الرأى . وكان من

المستحيل اعلان أن استقلال البلاد مهدد بفضل قوة الاتحــــــاد السوفيتى العسكرية الضخمة مثلما هو مهدد بأخطار الاستعمار الامريكى . ولا زالت هناك أيضا فورموزا . وفى صيف عام ١٩٥٨ ثارت المشاعر عندما انصب الاهتمام على استرداد فورموزاوالجزر المجاورة لها الى الوطن الام . ولكن الحجة كانت واهية .. وتحول الاهتمام الى ضرورة جعل الصين شريكة مفيدة للاتحاد السوفيتى ضمن المعسكر الشيوعى . وجربت بكين الاتصال بالجمـــــاعات المعادية للحزب الشيوعى فى موسكو . وفى هـــــذه المرة لم يكن باستطاعة خروشوف أن يستسلم . وكان تفوق الروس العسكرى والصناعى هو ملاذ الكرملين الاخير . ولم تفكر موسكو على أى حال فى ان تشاطر الصـــين هذا التفـــوق .

واذا عكفنا على دراسة عامة للاوضاع والعلاقات بين روســيا والصين منذ أن استولى الشيوعيون الصينيون على زمام الامور لخرجنا بالحصيلة التالية :

ففى الناحية الايديولوجية ، ركود تام . اذ أن النظامالصينى يختلف عن النظام السوفيتى ولكنه لا يناقضه الى حد يثير بلبلة خطيرة فى موسكو وفى جمهوريات أوربا الديمقراطية الشعبية .وقد ازداد سعى جومولكا وزعماء المجر وراء المعونة والمشورة الصينية. ودون أن يجرؤ زعماء وارسو على محاباة بكين ضد موسكو فانهم بدأوا يعارضون ما حدث فى موسكو ويضربون مثلا على ذلكبالاعمال والاقوال الصينية .

ولم يعد النظام الروسى هو القاعدة . فقد كانتالديمقراطيات الشعبية لا تزال تحتفظ بذكرى اليمة قريبة من الاوتوقراطيـــة الستالينية والبيروقراطية .

وكانت حصافة وذكاء الصينيين تناقض عجز الروس النفسى التام . ولم يكن ثمة من سبب يبرر احجام هؤلاء عن تحويل ثقتهم

من موسكو الى بكين ورفع مقام بكين بحيث تصبح العاصـــــمة الايديولوجية للعالم الشيوعى .

وفى الناحية السياسية تحولت الصين التى كانت تســـودها الفوضى والاضطراب ، فى غضون عشر سنوات الى كيان واحـــد واصبحت ندا للاتحاد السوفيتى . وفى عام ١٩٥٤ كان فى استطاعة روسيا ان تنظر للصين على انها تابعتها الرئيسية . و فى عام ١٩٥٨ ارتفعت مكانة الصين واصبحت شيئا آخـــر . وبدون ان تكون الصين عضوا فى الامم المتحدة ، فان الدول الشيوعية والراسمالية كانت تشعر بأهميتها بل انها وسعت نطاق علاقاتها الديبلوماسية والاقتصادية معها وكانت كل خطوة تتخذها بكين تثبت استقلالها عن موسكو . ولكن الحقيقة الهامة هى أن جمهورية الصين الشعبية بدات تؤثر على القرارات التى تتخذها موسكو . وكانت هـــذه حقيقة الوضع الذى يسود العلاقات الروسية الصينية .

واكتشفت اقتصاديات البلدين بعضهما البعض عندما كان الحصار الامريكى مفروضا على الصين . وحتى ذلك الوقت ،كان هناك تبادل محدود بين البلدين . وكانت اليابان وبريطانيا العظمى وبعض الدول الغـــربية الاخـــرى تصدر كثـــيرا من البضائع الى الصين ولذلك كان هنـــاك عجز دائم فى الميـــزان التجـــارى الصينى . وعندما قررت الولايات المتحدة ضرب حصار اقتصادى حول الصين فقدت أمريكا عميلا ممتازا تحول دون ترددالى منافسة امريكا وهى روسيا . ولم يؤد القرار الامريكى الى شيء شأنه فى ذلك شأن جميع القرارات المماثلة له . وابتداء من الحصار القـــارى الذى فرضه نابليون الى الاجراءات التى اتخذت ضد ايطاليـــا الفاشية ، فان القرارات السريعة انقلبت على من اصدروها . ولذلك اعادت بريطانيا العظمى علاقاتها التجارية مع الصين حسب العادة وبذلت اليابان جهودا جبارة لاستعادة اسواقها فى الصين بأسرع ما

يمكن . ولن تعجز امريكا عن اصلاح غلطتها فى الوقت المناسب عندما تستطيع حفظ ماء وجهها .

وكانت الاتفاقيات الاقتصادية والتجارية بين الصين وروسيا دقيقة وهى تنص على أن ترسل روسيا للصين اجهزة وآلات من أجل المناجم ، والمشروعات الكهربائية ومحطات التحويل والتعدين كما تقدم لها أيضا وسائل النقل ، والآلات الزراعية والحبوب .. وتسدد قيمة هذه الاشياء بواسطة القروض ذات الفائدة البسيطة التى تمنحها روسيا للصين . وتقوم الصين بدورها بتزويد روسيا بالمعادن والزيوت النباتية واللحوم والتبغ والشاى والفاكهة والصوف والجوت والحرير الخام والمنتجات الحريرية والجلود

وبعد مضى عشر سنوات من تبادل هذه البضائع التى كانت تزداد فى قيمتها ، لاحظ الصينيون أن الروس لا يقدمون لهم هدية دون مقابل ، فان الاجهزة الصناعية التى كانت تحصل عليها الصين من روسيا كانت تكلف بكين كثيرا . ولذلك بدأت حكومة الصين فى منع استيراد المنتجات الصناعية السوفيتية ، وعملت بكافة الوسائل على بناء صناعتها من مصادر غير روسية او مستقلة وبدأت المعونة اليابانية والبريطانية تنهال على الصين . ولحين من الزمن أثبتت هونج كونج احقيتها بلقب رئة الصين . وقد استاء الروس من نكران الصين للجميل . وكان الكرملين يعتبر ان تضحيات الروس لا تقدر بثمن ، فقد احتضن الاقتصاد الروسى الاقتصاد الصينى الحديث العهد بين زراعيه . ولكن بكين أشارت الى أن هذه المعونة كانت صغيرة اذا قورنت بحاجات الصين الكثيرة وان الصادرات الصينية الى روسيا كانت ثمنا كافيا «للكرم» الروسى.

وكانت بكين ترى ان الروس يشترون منها بأرخص الاسعار ويبيعون لها بأغلاها .

ولم يكن هذا رأى موسكو . فقد كان من الممكن فى رأى الروس

ان يكون لدى الشعب السوفيتي مستوى أعلى من المعيشة لو لم يبادر خلال السنوات العشر الاخيرة الى تقديم تضحيات غالية لتدعيم الصين باسم التضامن الايديولوجي . وكان من الافضل تخصيص القروض للدول المتخلفة التي يحتمل كسبها الى جانب روسيا بفضل مزايا الماركسية .

وكان مصدر التبادل الاقتصادي مع الدول الديمقراطية الشعبية الاخاء الايديولوجي . ولكن من لا يقدم شيئا لا يحصل على شيء . وزودت دول أوروبا الديمقراطية الصين بالمواد الخام والالات . وكان على الصين ان تقدم مقابل ذلك الحديد والزئبق والكوبالت والتصدير . ولو صدرت الصين هذه المواد مقابل مواد خام من دول غير شيوعية لاستفادت اكثر ، ولحصلت على أرباح اكبر ...

وعدا ذلك ، فان صادرات وواردات الصين كانت تحت سيطرة موسكو ، ويجب ان تمر عبر الاتحاد السوفيتي الذي يحصل رسوما كبيرة على النقل ، واكد وزراء اقتصاد موسكو أن الصينيين يستنزفون موارد الدول الشيوعية البسيطة واشاروا الى ان المواد الخام الصينية تعود الى بلادهم الاصلية في صورة بضائع استهلاكية .

وبالانتقال من دائرة فاسدة الى أخرى لم يكن باستطاعة الاشقاء الايديولوجيين الفرار من الامر الواقع . لقد كانوا يحلمون بأنهم سيستطيعون في النهاية التعامل بحرية مع العالم الراسمالي وقد ظهرت هذه الرغبة رسميا وعلنا في مناسبات عديدة ومن قبل الصينيين خاصة ، وأعلن «لي تشن من» نائب وزير التجارة الخارجية في الصين : «ان تحديد الاسعار في الدول الراسمالية شيء عادل حيث يتم التبادل على اساس مبدأ تساوى الاسعار .. وترى الصين ان بريطانيا العظمى والكومنولث البريطاني شركاء

تجاريين لهم قيمتهم بقدر الرخص النسبي للجنيه الاسترليني اذا قيس بالدولار . ولكن التبادل التجاري مع الاتحاد السوفيتي يتم على اساس الدولار وهذا يضايق رجال الاقتصاد فى بكين. وبالفعل فان الاتحاد السوفيتي لا يعترف الا بالدولار كعملة صعبة فى معاملاته مع المعسكر الشيوعي . ومعروف أن الروس يبيعون انتاجهم من الذهب فى سوق لندن . وهذا الاسلوب الميكيافيلي فى العمل لا يرفع من سمعة الاخصائيين السوفيت فى النزاهة التجارية ولاجتذاب راس المال الاجنبي أعلن الصينيون أنهم لن يفرضوا على احد ضرورة التعامل على اساس الدولار ، ولم تكترث الولايات المتحدة كثيرا بهذا الامر ولكنه كان مبعث استياء فى الاتحاد السوفيتي .

واصبحت سياسة الصين التجارية هجومية اذا قيست بالسياسة التى تتبعها موسكو مع الدول المتخلفة . وفى عام ١٩٥٤ قبل تدفق الذهب الروسي على الشرق الاوسط والمناطق الاخرى تعهدت الصين بتدعيم اقتصاد بعض دول آسيا . ففى سيلان ــ كانت امريكا هى المشترى الرئيسي للمطاط السيلاني ــ لا تدفع اكثر من واحد وعشرين سنتا مقابل رطل المطاط بدلا من اربعة وسبعين وأصبحت صناعة المطاط فى سيلان مهددة بالدمار ، وقد عرضت الصين شراء هذا المطاط لمدة خمسة اعوام مقابل الارز الذى تحتاجه سيلان .

وقد نجحت الصين ــ بادماج العمل مع اغراض الدعاية فى موازنة ميزانياتها التجارية التى كانت تواجه عجزا لاكثر من سبعين عاما ، وكى تحرر نفسها من الخضوع لتوجيهات روسيا فى شئون التجارة قدمت العروض لجميع الدول بدون استثناء . فهى تحاول ازالة مخاوف جيرانها . وذكر شواين لاى او فد يابانى ذهب الى بكين للحصول على معلومات : «يعتقد بعض الناس فى اليابان انه اذا أصبحت الصين دولة صناعية ، فلن يكون هناك مستقبل للتجارة بين اليابان والصين ، ان هؤلاء على خطأ . فان تصنيع

الصين سيرافقه ازدياد فى حاجات الصينيين . ولسد هذه الحاجات فان علاقاتنا التجارية مع اليابان يجب أن يتسع نطاقها لاكبر حد ممكن . »

وكان على الصين ان تسعى الى اجراء اتصالات دائمة ومختلفة مع العالم الراسمالى لكى تصبح دولة تجارية كبرى .

وليس الاقتصاد الروسى متمما للاقتصاد الصينى . واذا ارادت روسيا والصين النجاح فى انتاج المواد الاستهلاكية بكميات كافية فستصبح الدولتان فى مركز يتيح لهما تصدير منتجاتهما . ولا بد للدولتين من أن تبحثا عن نفس الاسواق . ونظرا لان الدولتين تملكان مواد خام متشابهة فليس من السهل بالنسبة لهما التضحية حقوقهما ولا بد من حدوث اصطدام .

واذا كانت روسيا قد استخدمت الايديولوجية المشتركة كوسيلة تساعد بها الصين فانها تكون فى الواقع قد اجرت صفقة تتسم بالحماقة وبهذا تكون قد وقعت فى شر اعمالها . وكان ستالين على حق فى شكوكه فيما يتعلق بالمسألة الصينية . وكان ماوتسى تونج هو القاتل الحقيقى لستالين .

واذا حاول الصينيون المقارنة فانهم يقولون انهم بالنسبة للاتحاد السوفيتى مثل بريطانيا بالنسبة للولايات المتحدة .

ولكن الصين تعتقد انها تستطيع أن تكون ندا للدول الكبرى كالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وان المقارنة مع بريطانيا العظمى تنيح للمرء أن يفهم عقلية بكين . والصين — التى تعتنق الشيوعية بطريقتها الخاصة لا تعرف لها اعداء ، كما انه ليس لها دول تابعة تسير فى فلكها بحيث تخشى فقدان نفوذها لديها وهى ليست دولة استعمارية بطبيعتها . وهى تريد تحقيق الثراء للصينيين ، من مواردها الغنية الكثيرة .

وقد أراد الانجليز استغلال الصين والصينيين وقد فعلوا ذلك

لفترة من الزمن . وقد خسروا اليوم بعض اسواقهم كما خسروا امبراطوريتهم ولكنهم لا يزالون محتفظين بكيانهم . وقد تخلصت بريطانيا من عقدها الاستعمارية واعتادت على التعامل مع الصين - ومما يذكر ان بريطانيا تكره التطرف والمتطرفين . وقد حاولت أن تتبع الولايات المتحدة فى سياستها ولكنها وجدت فى ذلك عنـــاء شـديداً .

وموقف الصين من روسيا شبيه بذلك ، ومن ثم نجم التفاهم المشترك بين بريطانيا والصين . وللبلدين حضارة وطريقة فى الحياة اسمى واقدم مما يملكه هؤلاء الذين يعتبرون سادة العالم فى الوقت الحاضر .

وعلى اى حال فان الصين تتوق الى استعادة مكانتها المرموقة السابقة وهى على يقين من انها ستحقق هذا الهدف .

الفصل السادس

سياسة التحدى

كانت ديبلوماسية الصين التى تعتبر أقدم ديبلوماسية فى العالم فى حالة سبات عدة قرون من الزمن . ولاول مرة منذ سنوات طويلة تستأنف الصين دورا بالغ الاهمية فى آسيا بفضل سياستها العنيفة . وللمرة الاولى فى تاريخ العالم تلعب الصين دورا رئيسيا له تأثير على قارات العالم الخمس . وحتى لو سقط الحكم الحالى غدا ، ولو عادت موجة من الفوضى الى هذا البلد ، فان النفوذ الجديد الذى اكتسبته الصين سيظل باقيا .

هل يستطيع المرء أن يتخيل موقف الولايات المتحدة اذا حدث ـ نتيجة لتحول القدر ـ وعادت الامبراطورية البريطانية الى سابق عهدها واعيد تشكيلها على أسس جديدة مثلما كانت قوية فعالة فى عهد « دزرائيلى أو بيت » ؟ فان هذه الامبراطورية الفنية القوية الطامحة ذات الخبرة الدبلوماسية الفذة ـ لو عادت الى حيز الوجود لجعلت الولايات المتحدة ترتعد خوفا منها . ولاصبحت زعامة امريكا موضع تساؤل ولاحاط الشك بنظام امريكا الاقتصادى ولانحط شأن دبلوماسيتها بصورة كبيرة ، ولكانت أفكار ساستها البسيطة مثارا للضحك ولتضاءلت هيبتها . ان الولايات المتحدة محظوظة لان بريطانيا العظمى لم تعد مثلما كانت عليه .

اما الاتحاد السوفيتى فهو اقل حظا ، فقد وجد فى الصين

حليفا وشريكا كان تابعا له لمدة شهور قليلة فقط وهو يستطيع التفوق عليه فى ميادين شتى من النشاط . واذا كانت ديبلوماسية الصين مستعدة لشن عدة هجمات فى اتجاهات مختلفة فى انحاء العالم ، فان الديبلوماسية السوفيتية ترى أن جبهة جديدة اضيفت الى الجبهات الاخرى . ويجب على روسيا أن تجابه الديبلوماسيات الغربية ، وتراقب عن كثب نشاط الدول التابعة لها فى أوربا ، وتجعل اصدقاءها فى الشرق الاوسط يواصلون الحدس والتخمين ، وفوق كل شىء أن تعدل اساليبها وخططها بحيث لاتؤخذ على حين غرة من قبل حليفتها الكبرى ــ الصين

ومن الناحية الرسمية فقد كان التفاهم يبدو سائدا فى العلاقات بين الصين وروسيا كأن لم يعكر صفوه شىء من شك أو ازعاج . ومنذ عام سنة ١٩٥٦ ، امضت ديبلوماسية البلدين وقتا طويلا فى اعداد الكمائن لبعضهما .

ومما يذكر أنه عقب مسألة المجر ببضعة أشهر ــ قام الكرملين بأكبر مناورة ديبلوماسية . فقد قام خروشوف وبولجانين برحلة الى لندن ونيودلهى وكابول ، وقام شبيلوف برحلات هنا وهناك وبدأ العمل فى الشرق الاوسط ، وقدمت روسيا معونة اقتصادية الى الهند واندونيسيا ومصر . وجاء هذا كله بعد قرار بكين بأنها ستهتم مستقبلا بالشئون العالمية بصورة مباشرة فعالة .

وفسر اهتمام خروشوف المفاجىء بالرحلات والمواهب التى ظهرت سريعا فى الكرملين لتعزيز اسهم السوفيت فى السوق الديبلوماسية الدولية ــ بانه ضرورة ملحة بقصد خداع الشعب الروسى فيما يتعلق بالمصاعب الاقتصادية الداخلية ، ونشر الشيوعية فى الشرق الاوسط ، ومضايقة امريكا وارغامها على بحث مسألة تقسيم العالم الى شطرين . وقد يكون هذا كله صحيحا ، ولكن السبب الرئيسى للنشاط الروسى كان يرجع الى

رغبة موسكو فى الا تؤخذ على غرة من جانب حكومة بكين .

وقد أعلن شواين لاى عن نيته بصراحة متناهية ــ وعن نية حكومته ــ فأعلن امام الرأى العام العالمى ان دولة جديدة كبرى قد ظهرت فى الوجود وانها لاتنوى مشاركة احد فى امجادها حتى حليفتها روسيا الشقيقة . وقد استقبل خروشوف هذه الانباء بفتور . وفى هذه الاونة انفجرت ازمة السويس وتدهور الموقف بسرعة . واستطاع خروشوف حينئذ أن يلعب دوره الهام المعروف فان تهديداته المكشوفه الخاصة بتدمير لندن وباريس اوتوماتيكيا بواسطة الصواريخ صادفت استجابة فى بكين .وكانت كلمات خروشوف من كافة النواحى موجهة الى الغرب ، ولكنها اظهرت للصين مدى اعتمادها على قوة الاتحاد السوفيتى المادية . وكان موقف الصين خلال هذه الفترة الحرجة يتسم بالتحفظ ..

وازداد عدم ثقة الصين بالتدريج . وبدات روسيا والصين معركة الدهاء وكانت كل خطوة تتخذها موسكو او بكين تخفى وراءها دافعا غير ظاهر ــ هو مضايقة الطرف الاخر . وعندما وصلت ازمة السويس الى ذروتها ، وقعت ثورة بودابست . وقد جاءت ثورة المجر بعد الثورة فى برلين ــ لذلك فقد هددت ثورة المجر التوازن الذى حافظت عليه موسكو بصعوبة مع اتباعها فى اوربا.

وكانت المعارضة الداخلية التى تتزعمها الجماعة المناوئة للحزب الشيوعى السوفيتى ، تنتظر الفرصة الملائمة للتخلص من خروشوف وحاول بولجانين ابعاد نفسه عن سكرتير الحزب الذى وجد تأييدا له فى الجيش ومن قبل ميكويان ولم يكن فى استطاعة خصوم خروشوف ايجاد حل اخرى سوى القمع المنظم الذى كان خروشوف ينوى ايضا ان يستخدمه . ولكن الجماعة المناوئة للحزب رات أن خروشوف ليس كفؤا لانجاح هذا الحل . وكانت

هذه فرصة ماوتسى تونج ليظهر من وراء الستار الذى وضعه السوفيت أمامه منذ استيلائه على الحكم .

وحانت لحظة الانتقام للفخ الذى نصبته روسيا للصين فى كوريا والذى تسبب فى ضعف الصين العسكرى والاقتصادى واضعاف سياستها الخارجية .

وقد أخطأت موسكو عندما طلبت من ماوتسى تونج ان يتدخل فى مسألة المجر . وكان الامر يتعلق بانقاذ مركز خروشوف وزعماء الدول التابعة لموسكو .. ولم يكن ماوتسى تونج ينتظر ان يطلب منه التدخل مرتين . ولاول مرة — وبحجة الايديولوجية تدخلت الصين مباشرة فى شئون اوربا . واخيرا انعكست الاية لتستفيد منها بكين ..

وايد ماوتسى تونج خروشوف ، الامر الذى ادى الى تهدئة الهياج فى اكرماين وانقاذ جومولكا ووقف المتطرفين وفلاسفة الحزب فى روسيا عند حدهم ونصب ماوتسى تونج من نفسه حكما بين موسكو وبودابست وبين جومولكا وخروشوف . وقرر ان يتوسط بين تيتو والاتحاد السوفييتى . وولدت قوة الصين من ضعف الاتحاد السوفييتى . وقد دام رجحان الميزان لصالح الصين ثمانية اشهر .

وتم فى يوليو سنة ١٩٥٧ القضاء على الجماعة المناوئة للحزب فى موسكو والتى تضم — مولوتوف ومالينكوف وكاجانوفيتش وشبيلوف . وفى نوفمبر تم ابعاد زوكوف الذى قدم لخروشوف مساعدة حاسمة ابان ازمة بودابست وعند القضاء على الفئة المناوئة للحزب . وكان ابعاد زوكوف بمثابة تحذير لماوتسى تونج .

ولم يكن فى نية خروشوف ان يبين امتنانه لهؤلاء الذين ارادوا

مثل زوكوف وماوتسى تونج الاستفادة الى حد كبير من الخدمات التى قدموها اليه .

وكان من الممكن بالنسبة لخروشوف ان يتخلص من المارشال زوكوف ، ولكن لم يكن من السهل عليه ان يتخلص من ماوتسى تونج الذى يتمتع بنفوذ هائل فى الصين وكان من العسير ارغام دول الستار الحديدى على عدم الاعتماد على مساعى ماوتسى تونج الحميدة .

ان ثورة بودابست لم تزعزع اسس الامبراطورية السوفيتية ولم تضعف نفوذ فلاسفة الحزب فحسب بل حولت بنتائجها ميزان التفوق فى العالم الشيوعى من موسكو الى بكين . وبدأ خروشوف حملته المضادة لماوتسى تونج بعد ان تخلص من خصومه فى موسكو — وذلك بشن حملته الكبرى فى الشرق الاوسط . ففى عام ١٩٥٧ — ١٩٥٨ بدأ سكرتير الحزب الشيوعى الذى تولى رئاسة الحكومة السوفيتية بعد ابعاد بولجانين بقلب مشكلة الشرق الاوسط راسا على عقب .

وفى عدة مناسبات فى التاريخ الحديث ، كانت القسطنطينية على وشك الانفجار بل انها فى عام ١٨٧٧ كانت على وشك ان تثير الحرب العالمية الاولى فقد قرر دزرائيلى حينئذ وضع جميع امكانيات الامبراطورية البريطانية ضد روسيا التى ارادت الاستيلاء على القسطنطينية وتحويلها الى مدينة تسمى سيزارجراد . ان الطريق المؤدى الى الهند ، وسلامة المواصلات الامبراطورية بل ومصير لندن نفسها ، كل هذا كان سيصبح تحت رحمة الروس لو نجحت جيوش القيصر الاسكندر الثانى فى دخول مدينة السلاطين . وقد اعلنت حالة الطوارىء فى جيوش أساطيل صاحبة الجلالة البريطانية وكان من الممكن ان تصطدم الامبراطورية الروسية والامبراطورية الفيكتورية على طول جبهة طولها بضعة آلاف من الاميال تمتد من البلطيق الى حافة جبال الهملايا . وكان لابد

لالمانيا وزعيمها بسمارك وفرنسا والنمسا والمجر من الانحياز الى احد الطرفين المتنازعين .

واستطاع مؤتمر برلين المحافظة على السلام . وبعد ستة وثلاثين عاما نشبت الحرب العالمية الاولى . وكانت بريطانيـــا العظمى وروسيا فى جانب واحد ولكن القسطنطينية كانت لا تزال الهدف الضرورى لكل من روسيا وبريطانيا وكان اللورد كتشنر فى طـريقه الى روسيا عندما اختفى فجأة فى بحر الشمال . وكان فى طريقـه للتباحث مع القيصر نيقولا الثانى بشأن الاتفـــاق على مســألة القسطنطينية . وعندما وضعت الثورة الروسية حدا للقـــوة السياسية الروسية فى عام ١٩١٧ ، كان لدى البريطانيين سبب يدعوهم للارتياح : وهو ان القسطنطينية اصبحت فى امان . ولو حدث وانتصرت روسيا ــ ولم تحدث فيها ثورة عام ١٩١٧ ــ لكانت أكثر الشركاء اثارة للمتاعب عند توقيع معاهدة انهاء الحرب العالمية الاولى . وكان من الممكن ان تطالب بالقسطنطينية بأى ثمن. وعندما اثار تشرشل مشكلة الدردنيل الخطيرة ، كان كل همه هو الوصول الى القسطنطينية وكان مصمما على الاستفادة من ضعف روسيا الحربى لاحراز اقصى ما يمكن من المكاسب قبل انتهــاء العمليات الحربية . وقد اثار فشل تشرشل فى هذا المجال اسوا المخاوف فى لندن .

وشعرت بريطانيا العظمى بالارتياح اثر ســـقوط الامبراطورية القيصرية . فبذلك استطاعت تكريس نفسها للغزو ــ ان لم يكن غزو القسطنطينية فغزو بترول الشرق الاوســـط على الاقل . واستطاعت بريطانيا ان تخدع منافستها فرنســـا بينما لم يكن باستطاعة المانيا النازية ان تحصل على موطىء قدم لها فى العراق . ومنذ عام ١٩٤٢ وما بعده دخلت اميركا المنطقة المخصصة لبريطانيا العظمى . ولم يكن التعايش الانجلو ــ اميركى سلميا . ثم جـاء التدخل السوفييتى فأرغم الجميع على الاتفاق .

ولم يضع خروشوف وقتا . واستفاد من القلاقل التى نشبت فى الشرق الادنى بسبب المشكلة المصرية . وقد فتح محمد نجيب له الباب أولا ثم عبد الناصر وحمل شبيلوف النفوذ الروسى الى القاهرة والاسكندرية لاول مرة . وقد امتد هذا النفوذ فى انحاء الشرق الاوسط . ولعب الاتحاد السوفيتى دورا هاما فى استغلال المنازعات بين العرب والغرب ، وبين العرب واليهود وبين العرب انفسهم . وجاءت الوحدة بين مصر وسوريا ووقع انقلاب بغداد . وفى العاصمة العراقيـــة حل الروس محـــل الانجليز . وبدل القسطنطينية جاءت بغداد وبدل المضايق جاء البترول ، وجـــاء استغلال النفط العربى بواسطة الانجلو ـ اميركان ودخول النفوذ السياسى الروسى الى بغداد ـ وكان هذا كله يكمل بعضه البعض .

وكان ماوتسى تونج وزعماء بكين يفكرون تفكيرا مختلفا . وقررت الديبلوماسية الصينية ـ لدهشة موسكو ـ ان تتدخل مباشرة دون ان تطلب مشورة حليفتها روسيا ـ فى شئون الشرق الاوسط وخاصة فى مسالة العراق المشتعلة . ودخلت الميدان قوى جـديدة وانضمت الى السباق الجمهورية العربية المتحدة ايضا . وتتابعت وفود الصين بسرعة منتحلة شتى الاعـــذار . وبدأ الصراع على النفوذ بين الاتحاد السوفيتى والصين والذى لم يقتصر على الشرق الاوسط بل امتد حتى وصل الى السودان . واعلنت الصين انهـا تنوى بذل مزيد من الاهتمام لبحث المسائل التى تهم العرب وافريقيا مثلها فى ذلك مثل الاتحاد السوفيتى . وانتقلت الاتصـــالات من السودان الى غانا والـــكونجو البلجيكى وجنـوب افريقيــــا وواجهت محاولات خروشوف لاستعادة ســـيادة بلاده على الركب الصينى ـ الروسى تدابير مضادة من قبل الديبلوماسية الصينية .

وكان لهذه التدابير اهداف عدة . فقد ارادت الصين ان تثبت لروسيا انها عازمة على تأييد استقلالها التام عن سياسة موسكو

وتوسيع نطاق صداقة الصين الى المسرح الديبلوماسى . لتبرهن انها جديرة بأن تصبح عضوا فى الامم المتحدة . وفى غمار جهودها لاقامة اتصالات جديدة ، لم تنس الصين اسيا ، ولكنها كانت تفضل معالجة الشرق الاوسط وافريقيا اولا بحيث تستطيع بعـــد ذلك الالتفاف حول اسيا ـ وخاصة الهند .

كانت الهند هدفا لمطامع بريطانيا وفرنسا منذ القرن السابع عشر وعندما تم ابعاد فرنسا عن المنطقة ، واصل الروس الضغط الشديد على حدود الهند الشمالية وخاصة ابان القرن التـاسع عشر . وعرض القيصر بول الاول الانضمام الى نابليون برنابرت فى فتح شبه جزيرة الهند . وفى تسيت عرض نابليون بدوره عقد تحالف مع القيصر الكسندر الاول بقصد ارســـال جيش فرنسى روسى للزحف على أرض الجانح فى الهند . وراح قياصرة روسيا ـ نيقولا الاول واكسندر الثانى والكسندر الثالث . يتطلعون الى جوهرة آسيا بنفس الجشع الذى كان يتطلع به الانجليز الى القسطنطينية ومنذ عام ١٩٥٥ وروسيا تتصارع مع الصين حول كسب حكومة نيودلهى . وظهر لاول وهلة ان بكين كسبت المعركة . وكانت الهند التى يتزعمها غاندى ونهرو تعطف على دولة الصين الاســـيوية المتمدينة المسالمة . ولكن عندما قررت بكين احتلال التبت عسكريا انكشفت اللعبـــة . ورأى نهرو ان هذا العمل الفردى بادرة تحـــد حيال نيودلهى .

وامر تلميذ نبى العصيان المدنى بتسليح الجيش الهنـــدى . ووجهت عناية كبيرة للدفاع عن الحدود الشمالية والشماليـــة الشرقية . واتبعت سياسة عنيفة حيال الحزب الشيوعى الهندى والاحزاب الاقليمية . ولم يمنع هذا حكومة نيودلهى من الترحيب الحار بزعماء الاتحاد السوفيتى . ولم تكن الاحزاب الشيوعيـــة

الهندية تتلقى تعليماتها من موسكو ولكنها بدأت تتلقاها من بكين منذ عام ١٩٥٠ .

وكانت موسكو بعيدة جداً عن نيودلهي وهي قبل كل شيء عاصمة دولة اوربية . واما بكين فهم اسيويه و لصين مجاورة للهند . وكما رأينا ، فان الاتحاد السوفيتي يملك اقتصاد يحقق التوازن بين رأسمالية الدولة وبين مذهب اصلاحي لم تتحدد معالمه بعد . وكانت الصين تقدم اشتراكية جذابة تتناسب والظروف الاسيوية واما الهند فكانت على وشك القيام بثورة زراعية موجهة تنطوى على آمال ديمقراطية حرة . وهي تحاول بناء قوة صناعية بوسائل مالية محدودة .

وباختصار كانت الهند تتلمس الطريق السوى والاسلوب الملائم وكانت حكومة الهند الحاضرة تعلم ان اتخاذ اية خطوة زائفة قد يؤدى الى كارثة مروعة . واذا حدث ذلك ، فان الكرملين سيكون بعيدا منهمكا في متاعبه بحيث لا مجال لفرض ايديولوجية ظافرة على خمسماية مليون هندى . والخطر السوفيتي هو خطر مخفف بالنسبة لنيودلهي ولا يشبه الخطر الكامن في جمهورية الصين الشيوعية القريبة . وعندما استولت القوات الصينية على التبت لم تفشل موسكو في تقديم تأكيدات سلمية لنيودلهي ، ولكن هذه التأكيدات كانت باسم الاتحاد السوفيتي فقط . وهي تمثل عرضا بالحماية من قبل الكرملين امام اى خطوة قد تقدم عليها بكين . وكان هذا قمة التناقض ، ولكنه كان يعنى ان الهند المترددة يمكن ابقاءها في المعسكر المحايد الامر الذى يفيد العالم الشيوعي .

وبذلك أعطت موسكو درسا لبكين في الاتزان ، ولكن هذا لم يحل مشكلة التنافس بين روسيا والصين

وعندما اطلق نهرو صيحة الخطر ، ارادت الدول الاسيوية ذات الميول المحايدة ان تعكس هذه الصيحة على الخداع الذى كانت

تقدمه الصين الشيوعية لجماهيرها التى كان من العسير السيطرة عليها . وفى اندونيسيا ، قرر سوكارنو كبح جماح حكومته التى كانت منذ مؤتمر باندونج تتجه الى التفاهم مع العالم الشيوعى بأى ثمن . وعندما أصبحت الصين زعيمة الشيوعية الاسيوية ، رأى سوكارنو ان قواعد اللعبة لم تعد تلقى احتراما . ولم يكن الامر يتعلق بالشيوعية بقدر ما يتعلق بالاستعمار الصينى الذى يعتبر فى مثل خطورة الاستعمار اليابانى فى الحرب العالمية الثانية .

وكان الاستعمار اليابانى يقتصر على الاشراف على الاسواق الاقتصادية التى كان لابد منها للاقتصاد اليابانى . اما الاستعمار الشيوعى الصينى فانه يطالب بالسيادة السياسية والاقتصادية والايديولوجية فى آسيا . وكان من السهل تحويل جماهير الهند واندونيسيا . وبينما كانت الهند تحاول تغيير معالم اقتصادها بصعوبة فان اندونيسيا بالرغم من ثرواتها كانت لا تبالى بمشكلة ازدياد السكان الذى لم يكن يعوضه — كما فى اليابان — الجهود الجهيدة فى الانتاج الاقتصادى والتوسع .

وكان الاغراء الذى تقدمه التجربة الصينية قويا بالنسبة للجماهير الاسيوية وكان مصدر الاغراء قريبا وميدان التجربة كذلك . فقد كان للصين نفوذ دائم فى هذه البلدان . ومنذ عهد امبراطورية مانشو الى ان تحولت الصين الى حكم كومنتانج ، فان الصين كانت تجتذب انظار هذه الجماهير وتثير اعجابهم . وقد ازداد هذا الاعجاب بعد قدوم الشيوعية . ومن العسير على سوكارنو ان يوقف آثاره فى اندونيسيا ، وكما هو الحال فى الهند ، فان الحياد فى جاكارتا يسعى الى الحصول على تأييد له فى موسكو وحتى فى بلغراد وفى القاهرة ، ولكن ليس فى بكين .

ولم تنج الفلبيين من النفوذ الصينى ، ولكن الحياد لا يلقى ترحيبا كبيرا فيها . والحال فى سيام لا يختلف عن ذلك . وكان

موقف سيام حبا فى بكين ـ كما كان فى بورما ذات الميول الحيادية ـ قد ازداد صلابة الى درجة ان الميول المعادية للصين فى جنوب شرق آسيا كانت تتحول باستمرار الى بانكوك . وبكين على دراية بهذا الموقف بحيث انها فى صيف عام ١٩٥٨ حاولت أن تسدد للروس ما كابدته فى مسألة كوريا . وهكذا خلقت حوادث جزر بسكادور القريبة من فورموزا .

وبالنسبة لبكين ، فانه لو لم تكن فورموزا موجودة لكان من الضرورى ايجادها . وكان تشيانج كاى شيك قد لجأ الى فورموزا مع نصف مليون صينى وبذلك ابتعد عن القارة الصينية . وشكل تشيانج كان شيك دولة وطنية كان تحالفها مع أمريكا يعود لاسباب اقتصادية ومالية فضلا عن ان دولة الصين عاملته بازدراء . ومع ذلك فان جزءا كبيرا من هؤلاء الصينيين لم يكونوا شيوعيين او يعطفون على الشيوعية . وكان سبب ازدراء الصينيين لشيانج كاى شيك انهم يعتقدون ان رحيله عن الصين كان بمثابة فرار وليس استعداداً للعودة . ولكى تحصل فورموزا على مكانة لهـا كان ينبغى ان تصبح مثالا للديمقراطية الصحيحة والسلوك الحكومى الممتاز ، والامانة الاقتصادية وان تتمسك بالاستقلال حتى لو اضطرها الامر الى مقاطعة الولايات المتحدة ذاتها لاثبات حسن نيتها . ولو كانت فورموزه قد حققت هذه المبادىء لكان من الممكن ان تصبح رأس جسر لاى حركة معادية للشيوعية فى الصين ونموذجا أدبيا رائعا لبقية دول آسيا . ولكن فورموزا لم تحقق هذه المبادىء ولهذا فهى لا تمثل خطرا حقيقيـا على الصين ولعل هذا هو السر فى عدم تعجل حكومة بكين فى الهجوم عليها ولاشك ان هذا كله هو نتيجة الخطأ الذى وقع فيه شيانج كان شيك .

وقد أوجد ماوتسى تونج فزعا حقيقيا ، ومما يذكر ان هـذا الفزع كان فى واشنطن ولندن أقل منه فى موسكو نفسـها ، وذلك عندما اثار مشـكلة كيموى فى صيف عام ١٩٥٨ وأعلن انه على

استعداد للقيام بأى عمل مهما كان متطرفا فى سبيل اســـتعادة فورموزا والجزر المجاورة لها . وكان فى استطاعة ماوتسى تونج ان يعطى دورا هاما لمولوتوف وزير خارجية روسيا السابق الذى كان حينئذ سفيرا لروسيا فى اولان باتور عاصمة منجولب الخارجية التى تقع بين موسكو وبكين . وبمساعدة وزير خارجية روســيا أعد ماوتسى تونج « لعبة » كان يمكن ان تضع نهاية ـــ حاســـمة للعلاقات الرسمية بين الصين والاتحاد السوفييتى .

واصدرت بكين أوامرها بقصف جزر كيموى بالقنـــابل بدون أخطار موسكو بذلك . وصدر بيان بعد ذلك يوحى بأن شيئا مزعجا سيحدث . وكانت بكين تقصد فى الواقع اختبار تضامن وحسن نية السوفيت حليفة الصين ولاثارة الاضطراب والارتباك فى العـــالم وقد تحقق هذا الهدف . واعتقدت لندن وواشنطن ان الحـــرب أصبحت قاب قوســـــين او ادنى . ولكن لدهشـــــــة الخبراء الديبلوماسيين فى عاصمتى العالم الحر فان الكرملين هو الذى قام بالبوادر الاولى للتهدئة وكان خروشوف فى حيرة لا تقل عن حيرة دالاس أو ماكميلان . وحدس خروشوف بسهوله أن هدف المناورة الصينية هو ارغام موسكو على الاستسلام . وكان المتوقع انه اما ان تؤيد موسكو حكومة بكين فى موقفها الجديد بلا شرط او قيد وتوافق على المجازفة باشعال حرب عالمية سببها حاجة الصـــين المفاجئة لاستعادة احدى جزر الباسفيك حتى ولو كانت فورموزا ، واما ان ترفض الاشتراك فى هذه المغامرة الحمقاء ونتيجة لذلك ستفقد روسيا ماء وجهها فى نظر العالم وفى نظر آســـيا بصفة خاصـــة .

وكان تردد الغرب والمخاوف التى نجمت عن عدم استعداد حلف جنوب شرقى آسيا للدفاع هو الذى جعل امريكا وبريطانيا تقدمان لموسكو وسائل حفظ ماء وجهها وانهاء المسألة . ولكن بكين كشرت عن انيابها وبدات أطماع الصين تخيف موسكو .

وقد طلبت بكين بعد أن مدت اصابعها الى خروشوف وحزبه بسخرية واهانة مقابل تحسين سلوكها فى الاشهر المقبلة ـ ايضاحا لعلاقاتها مع الاتحاد السوفييتى . وكان هذا الايضاح يشتمل النقاط الاتية : ـ

١ ـ تتبع جمهورية الصين الشعبية من الان فصاعدا سياسة خارجية مستقلة تماما . وعدا ذلك ، فان الاتحاد السوفيتى ياخذ بمقترحات الصين فى كل ما يتعلق بشئون آسيا . وهذا معناه مطالبة الروس ـ بأدب وقف تدخلهم المباشر وغير المباشر فيما لا يخصهم ـ وهو آسيا .

٢ ـ تقوم روسيا بتزويد الصين الشعبية بكافة الاسرار الذرية والنووية التى تملكها كدليل على حسن نيتها وتضامنها الشيوعى وتزود روسيا الصين أيضا بكافة تفاصيل صواريخ الفضاء . وأشارت الصين الى انه اذا لم يتقاسم المعسكر الشيوعى كله أسباب القوة فان الاخاء الايديولوجي سوف يتعرض للانهيار .

٣ ـ يضاعف الاتحاد السوفيتى ما يسلمه للصين من اسلحة ثقيلة كما يجب على روسيا ان تزود صناعة الاسلحة الصينية بالالات الخاصة بانتاج الاسلحة الخفيفة والثقيلة وبذلك تتمكن القوات الصينية المسلحة من سد حاجاتها فى المستقبل .

٤ ـ تخضع جميع الاحزاب الشيوعية فى آسيا لسيطرة الحزب الشيوعى الصينى وحده .

وطلبت الصين من روسيا تقسيم العالم الشيوعى فيما بينهما . وتركت الصين دول اوربا الديمقراطية الشعبية لرعاية روسيا ، وكانت هذه منحة غير ذات قيمة وخصت الصين نفسها بالجزء الاكبر وهو آسيا . ومقابل ذلك علم ان افريقيا والشرق الاوسط وامريكا الجنوبية ستكون مناطق نفوذ مشتركة بين الطرفين .

وثارت ثائرة الكرملين لبضعة ايام ، واخذت الجماعة المناوئة للحزب ترفع راسها معتقدة ان اللحظة قد سنحت كى تنتقم من خروشوف ولكنها خدعت بسرعة فقد كان ماوتسى تونج نصيرا لخروشوف . ومن ثم فلم يعد يهتم بشئون الكرملين بشرط اجابة مطالبه . ومن أجل ذلك ، فانه لم يكن ثمة حاجة الى عقد معاهدة تحالف جديدة قد تثير الشكوك ، وكان يكفى توقيع بروتوكول سرى .

وتعجب خروشوف وخيل له أنه فى حلم . وعرض ميكويان الذهاب الى بكين ليحاول تسوية الامور ، واستشير مولوتوف فى الامر ، فأعرب عن اعتقاده بأنه لا يوجد سبب يحول دون قبول مقترحات بكين . وفوق كل ذلك ، فانه لا ينبغى ان يكون التضامن الايديولوجى مجرد عبارة لامعنى لها . ويجب ان تشارك موسكو بكين فى مسئوليات العالم الشيوعى . وانه لشىء حسن اذا ساهمت بكين بنصيبها من التضحيات فى سبيل الصالح العام . وكان أشتراك الطرفين هو الوسيلة الوحيدة لانتصار الشيوعية فى العالم . وهز خروشوف كتفيه بازدراء . وذهل مولوتوف « المحافظ » من تطور الموقف . فقد أخذته الاحداث على حين غرة ولم يكن أقل دهشة من خروشوف بتطور المسألة الصينية وتقلباتها .

وقد استطاع ماوتسى تونج ان يستحوذ على أعجاب مولوتوف بل وان يكسبه الى جانبه . . وقد فعل ستالين نفس الشىء . فقد ولد مولوتوف ليكون تابعا لرجل أقوى منه . ولهذا السبب النفسى فقد أصابت الحيرة مولوتوف بعد وفاة ستالين عندما اعتقدت موسكو بل والعالم انه سيكون الخليفة الوحيد الممكن لستالين وقد تنحى مولوتوف وأفسح الطريق لمالينكوف وخروشوف اللذين كانا صديقين حميمين فى ذلك الوقت .

ولم يؤخذ بنصيحة مولوتوف فيما يتعلق بالمسألة الصينية . واضطر خروشوف الى مواجهة الموقف وفى ذهنه مصالح الاتحاد السوفيتى فقط . ولم يكن هناك ما يدعو الكرملين — او الفئة الحاكمة فى موسكو الى قبول الشروط التى وضعها ماوتسى تونج ورفاقه .

ولكن لابد من مواجهة الحقائق . ولم يكن من المستطاع رفض الشرط الاول ، لسبب بسيط هو ان الصين قد تستغنى عن ثورة الكرملين وتباشر حريتها الديبلوماسية . وكان هذا مجرد تأكيد حقيقة واقعة . وقرر خروشوف مسايرة الظروف . ووافق الاتحاد السوفيتى على تزويد الصين بما لديها من اسرار عن الذرة وكذلك الحال بالنسبة لصواريخ الفضاء . ولكنها تذرعت بأسباب فنية وطلبت تأجيل ذلك مدة ستة وثلاثين شهرا . ووافقت الحكومة السوفيتية ايضا على تقديم الآلات الثقيلة التى ستمكن الصناعة الصينية من سد حاجة القوات المسلحة وهنا أيضا ، كان لابد من تأخير الموضوع اربعة وعشرين شهرا . وأما المسألة الايديولوجية الخاصة بأحزاب آسيا الشيوعية فيمكن حلها بالاتفاق بين الطرفين . وتستطيع بكين السيطرة على هذه الاحزاب ، ولكن موسكو طلبت ان يكون لها حق الرقابة عليها .

وهكذا ، من كافة الوجوه ، كسبت بكين الموقف . واتجنب الانشقاق ولمنع الدولتين الكبيرتين فى المعسكرالشيوعى من الانتقال من المنافسة الى الخصومة قامت موسكو بالتنازلات اللازمة . وقد تبنى ماوتسى تونج وجهة النظر هذه ولكن بدون أن تساوره أوهام حول النتائج العملية لاعماله . وكان هدفه الوحيد هو توضيح الامور وممارسة حريته فى العمل وانتهاز الفرصة لتأكيد هذا الرأى بقدر الامكان . ولم يعد يثق بخروشوف او بأى روسى آخر . ولم تعد الشيوعية الروسية تستطيع انجاز مهامها حيال الايديولوجية

الماركسية . وكان من الممكن وضع العلاقات الصينية السوفيتية على أساس ديبلوماسي فقط . ولم تأت الصداقة الايديولوجية بأية فوائد . وقد سلكت الصين طريقها الخاص نحو الشيوعية بينما تمسكت روسيا بطريقها وكان من راى بكين انه يجب عدم دماج الطريقتين معا . ويجب ان تجرب الصين حظها بطريقتها الخاصة . وكان ماوتسي تونج يأمل عن طريق مطالبة موسكو بالكثير ان يؤدي رفضها الى قطيعة حقيقية بينهما .

وادرك خروشوف بدوره ان الحوار الصيني — الروسي كان حوار بين أشخاص لا يسمعون كأنما اصيبوا بالصمم . والميزة الوحيدة لروسيا على الصين هي تفوقها الفني والعسكري الكبير . ولا مجال للتضحية بهـــذه الميزة . والامر الرئيسي هنا هو كسب الوقت . ولتحقيق ذلك أعد خروشوف والكرملين خطة متقنة .

وكانت الخطة ذات صبغة ايديولوجية وتهدف الى ايجاد وضع ثوري في بكين . ولم يكن الحزب الشيوعي الصيني يفتقر الى وجود سخط في داخله . وكل ما كان ينبغي عمله هو اشعال الجمرات . وكان الحزب الشيوعي الصيني لا يزال تحت حكم « المحنكين » من أمثال ماوتسي تونج ، شو اين لاي ، تشن ين ، ليوشاوتشي ، تونج بي وغيرهم من الذين خاضوا مدة ثلاثين عاما سلســـلة من الحروب الاهلية واحتفظوا بالسلطة العليا بموجب او بحق الاقدمية والمنزلة وكان من الممكن ادراك وجود رغبة بين العناصر الشابة في الحزب من أجل اعادة التنظيم وقد استطاع ماوتسي تونج بعد مناورة قام بها عدل خلالها موقفه من ان يتخلص من خصومه في سبيل سلامة الحزب . وقد اتجهت سياسته داخل الحزب الى التشدد وانقيـــام بمحاولة علنية نحو تحقيق المرحلة الاولى التي كرس نفسه لهـــا وهي : تطبيق فكرة الكوميونات .

وكانت حملة « المائة زهره » ومســـألة الكوميونات مرتبطتين

بخيط توجيهى واحد يمسك به ماوتسى تونج . وقد قرر خروشوف عقب المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ان يقود روسيا نحو مستقبل اقل عنفا وصلابة . ويحتمل ان يكون الغرب اقد اعتقد بأن هذه النية تخفى وراءها مقاصد سيئة . وقد استطاع خروشوف ان يطبق وجهة نظره بطريقته الخاصة ، وحاول ان يرقى بالاراء التى يعتنقها الى مرتبة الايمان . وقد نجح خروشوف فى تحويل مجرى الامور فى روسيا واستسلم لضغط الجماهير التى ترغب فى تحسين معيشتها وتحقيق حياة أفضل . وأصبح خروشوف بهذه الطريقة بمثابة الشخص الذى يرغب فى تصفية الشيوعية الستالينية . وراقب ماوتسى تونج هذا التطور عن كثب فقد كان هذا الامر بمثابة تحذير له . وبينما اتبعت روسيا خلال اربعين سنة من ثورتها مبادىء لينين وستالين التى كانت بمثابة ستار للبيروقراطية المتطرفة فقد اصبح فى مقدوز روسيا الان ان تفكر فى ان تصبح دولة بورجوازية مستقرة أجتماعيا واقتصاديا ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه الصين بدورها تخطو حثيثا فى مغامرتها الاشتراكية . ولم يكن فى استطاعة حكومة بكين ان توقف التجربة التى تقوم بها فى الحقل الشيوعى قبل ان تثبت فشلها . وادرك ماوتسى تونج بسرعة انه من الخطر الاقتداء بخروشوف وتقليده تقليداً أعمى . وكانت حملة المائة زهرة عملية تستوحى ذلك المثل . وقد جلب نجاحها السريع نهايتها السريعة . وبدون تردد ضرب ماوتسى تونج بحملة المائة زهرة عرض الحائط .

وتحول ماوتسى تونج الى الطرف الاخر من الخطة المتطرفة واعلن عن فكرة الكوميونات . وفى غضون اسابيع بل ايام ، قام المزارعون الصينيون بتحويل كيانهم الاصلى — وهو مجموعة التقاليد القديمة — وهدموه واستبدلوه بالحياة العامة المشتركة بالمعنى التام لهذه الكلمة ؛ وهى الاكل المشترك ، والشرب المشترك والنوم المشترك . وكان هذا بمثابة انكار تام للحياة الصينية

التى انقلبت راسا على عقب . وبذلك ارتكب ماوتسى تونج أول حماقة كبرى له فى حياته السياسية .

فقد أثار الصينيين والصين على نفسه ، بما فى ذلك الشيوعيين .. وأطلق العنان للمعارضه . وقد أراد ماوتسى تونج أن ينقل الى المستوى الوطنى طريقة الحياة التى عاشها مع رفاقه خلال « الوحف الطويل » اثناء جمهورية بينان أى خلال الحركة السرية .

وعندما علمت موسكو ببدء حملة الكوميونات من جانب زعيم الشيوعية الصينية اصيبت بذهول كبير وبقفزة واحدة سبقت الصين روسيا أميالا ، ولكن موسكو لم تتحرك وكذلك الحال بالنسبة للدول الديمقراطية الشعبية . واستاءت الدول الاسيوية .. ان المرء لا يستطيع أن يطلب من شعب يقدس الفردية مثل الشعب الصينى ان يحول نفسه فى غضون ساعات الى مجموعة من النمل . وخسر ماوتسى تونج المباراة ورفع يده مستسلما .

ولكن هل كسب خروشوف ، كلا ، وذلك يرجع الى ان الحركة التى ارد انشاءها فى الصين فشلت بسبب مسألة الكوميونات . وقد ادى انسحاب ماوتسى تونج اللبق الى وقف الشيوعيين الصينيين الموالين لموسكو عند حدهم . ولم يكن هذا الانسحاب تنازلا . فان ماوتسى تونج القى حجرا ليس الا . وظل الصينيون على وفاق تام مع موسكو واستمروا فى مطالبة السوفيت بالاسلحة والصواريخ وتحقيق الشروط التى قبلها خروشوف . ومع ان ماوتسى تونج استقال من رئاسة جمهورية الصين الا ان جهاز الحزب لايزال بين يديه .

وبدأ ان ماوتسى تونج لايطالب بالسيادة المطلقة على المذهب الشيوعى فى الصين أو أسيا فحسب بل وفى العالم كله . ولم يكن هذا من قبيل الجنون المطبق ولكنه تعبير عن شعور عميق

بالواقع . وكنت روسيا تحاول لم شمل الايدبولوجية الشيوعية فى انحاء العالم . وكانت مهمة ماوتسى تونج استخلاص النتائج .. وواصل خروشوف خسارته فى هذا الموقف المشحون بالارتباك بينما كانت العلاقات بين البلدين ، من الناحية الرسمية حسنة

وفى هذه الاونة ، تناهى الى خروشوف ان هناك مفاوضات تدور فى سرية تامة بين بكين وفورموزا ، أى بين ماوتسى تونج وتشيانج كاى شيك تحت اشراف مدام سن يات سن — ارملة مؤسس جمهورية الصين الراحل وشقيقة مدام تشيانج كان شيك .. وان حدوث مصالحة بين الصين وفورموزا — مع انه من العسير تخيلها — فانها قد تؤدى الى مصالحة بين الصين والولايات المتحدة . وقد أرغم ماوتسى تونج خروشوف على اظهار أسلحته . وقرر خروشوف تنفيذ خطة كان ينوى استخدامها على اعتبار انها ملاذه الاخير . وقد تعلل خروشوف بازمة برلين بعد توتر الموقف فيها واقترح على بكين عقد صلح مع أمريكا . وقد فوجئت الصين بهذا الاقتراح .

وبالرغم من فشل مؤتمر الاقطاب الذى عقد يوم ١٦ مايو سنة ١٩٦٠ وبالرغم من حدوث ازمة فى العلاقات بين روسيا وامريكا .. فقد أعدت موسكو خطة لاستئناف الاتصالات مع واشنطن عقب انتهاء انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة وكان على الصين أن تتراجع بعد أن اعتقدت أن مؤتمر ١٦ مايو سنة ١٩٦٠ وضع حدا للازمة بين بكين وموسكو . وتمسك الاتحاد السوفيتى بارائه الخاصة بالتعايش السلمى . وشن خروشوف بعد أن استعاد سيطرته على دول الستار الحديدى حملة تلو اخرى ضد الدبلوماسية الامريكية من اجل اذابة ثلوج الحرب الباردة بين روسيا والولايات المتحدة ولاستئناف عقد محادثات حاسمة مفيدة بين الدولتين الكبيرتين فى العالم . وكان المفهوم انه اذا ظلت جمهورية الصين الشعبية خارج الامم المتحدة فستصبح اسيرة عزلتها . . اذا دخلت الامم المتحدة بفضل مساعى موسكو الحميدة ؛

فانها ستصبح تحت حماية الاتحاد السوفيتى ، سواء قبلت ذلك او لم تقبل . وعلى اى حال ، فقد كانت الديبلوماسية السوفيتية عازمة على ان تواصل تقدمها على المسرح الدولى بافضل الشروط الممكنة .

وفى هذه الاثناء ، اشتدت حدة النزاع الايديولوجى بين موسكو وبكين وقام « هوتشى منه » زعيم فيتنـــام الشماليه بدور الحكم الرئيسى بين الصين وروســـيا . ولكن الموقف لم يتبـــدل وقد أدى ادعاء الصين بانها تستطيع اعطاء الروس دروسا فى الايديولوجية الشيوعية بالاضافة الى تجربه الكوميونات المليئة بالمجـــازفات الى اختلال التوازن بينهما ، وتحملت موسكو وبكين بعضهما البعـــض رغما عنهما ، واتفقتا على أمر واحـــد هو العمل على حفظ مـــاء الوجـــه .

ولا زالت الصين وروسيا تحتفظان بمواقفهما السابقة . وظلت الدولتان الكبيرتان حليفتين . وتبادل زعماء البلدين الزيارات الودية واشتركوا فى مؤتمرات الحزب التى تعقد فى البلدين . وكان هـــذا الود يخفى حقيقة الموقف . ومن ثم رأحت روسيا والصين تراقبان بعضهما البعض بشك يسوده التحفظ . وكان السوفيت يتطلعون نحو أمريكا ، والصينيون يتطلعون نحو اليابان . وستواصل كل من الدولتين جهودها لتغيير موقفهما تجـــاه الدول الاخرى ، حسب مصالحهما ، دون أن يبدو عليهما مع ذلك اى اثر للقطيعـــة او النزاع .

ولن تخسر الصين شيئا فى هذه الحال . وعندما تنفصل الصين فى النهاية عن روسيا وتعجز عن الاعتماد على معونتها المادية وتفقد روابطها الايديولوجية المتينة مع موسكو ، فان بكين ستبدو فى أعين الاسيويين فى مظهر أفضل وستصبح اقرب الى قلوبهم . والواقع انه عندما ترتد الصين على أعقابها وتستانف اهتمامها الصادق

بآسيا ، فانها ستستطيع زيادة نفوذها دون أن تخيف الاسيويين أو تثير فى نفوسهم الرعب .

واذا انفصلت جمهورية الصين الشعبية عن موسكو فانه يصبح من السهل عليها ان تبدأ نفسها كيوغوسلافيا ـ كانها ضحية قوة روسيا الاستعمارية فى الوقت الذى تعتبر فيه آسيا غير الشيوعية ضحية الاستعمار الغربى .

وبالنسبة للصين فانه سواء كان هناك انفصال ايديولوجى عن موسكو ام لا ، فان البلد الذى يجب عليها أن تحصل مودته بأى ثمن هو اليابان . اذ ان بورما والهند وسيام واندونيسيا لاتزال دولا ضعيفة من الناحية الاقتصادية .

ونظرا لان اليابان متقدمة صناعيا فضلا عن انها كثيفة السكان وتتوق الى استعادة اسواقها السابقة ، فان الصين تستطيع أن تجدها مكملة لها وهذا مالن تجده فى الجانب السوفيتى . ومن الممكن ان تحل اليابان محل الاتحاد السوفيتى كشريك اقتصادى كبير للصين رغم أن لها ميزة مزدوجة بالنسبة للصين ، فهى دولة اسيوية كما انها اقوى دولة صناعية فى اسيا . ولقد تبين لليابانيين فى غمار بحثهم عن أسواق لهم ان الولايات المتحدة لن تستطيع الاستمرار فى مساعدتهم بصورة اصطناعيه . وقد تحررت من روسيا وبذلك يمكنها أن تصبح شريكة مثالية لليابان .. ومن الممكن ان تبرز المشاركة اليابانية ـ الصينية بصورة اقوى ولها ما يبررها اكثر من المشاركة غير الطبيعية بين الصين وروسيا .

الفصل السابع

حتمية الواقع

تنتقل روسيا والصين من المصلحة المشتركة الى المنافسة ومن المنافسة الى الخصومة . والسبب الرئيسى لهذه الحالة هو الضعف النسبى للبلدين .

ولا تكفى العلاقات الايديولوجيه لخلق رابطه قويه دائمة بين الدولتين الكبيرتين . وان الجماهير الصينية التى يزيد عددهاعلى ستمائة مليون نسمة والجماهير الروسية التى يزيد عددها على مائتى مليون نسمة تختلف فى الواقع عن بعضها اختلافا يجعلها لا تستطيع دائما عقد تحالف من اجل القضية المشتركة وحدها . وتبلغ مساحه البلدين ٢٤ مليون ميل مربع . والاتحاد السوفييتى لا يزال أمامه وقت طويل قبل أن يتم ارساء صرح كيانه الصناعى الذى لا يزال عاجزا عن سد حاجات الشعب المتزايدة وسيكون هذا الاقتصاد فى حالة عجز اذا اضطر ايضا الى تحمل عبء اعداد الصناعة الصينية التى لا تزال فى مهدها أن البلدين فى حاجة الى خمسين سنة من السلم والفرص الحسنة لتنظيم اقتصادهما . وهذا قد يتطلب ديكتاتورية عامة أو رجلا خارقا للعادة لايسأل عما يفعل .

ويتطلب الامر مشاركة بين الصين وروسيا لتحقيق نموذج مثالى ، وهذه النظرة المعنوية تثبتجانبا من هذه الدلالةالجغرافية

وهى أن روسيا دولةأوروبية واسيوية ، بينما الصين دولة اسيوية من قمة رأسها حتى أخمص قدميهما .

وقد كانت الصفة الحقيقية لروسيا منذ نشوئها بين القرنين العاشر والحادى عشر - انها أوربية أسيوية . وقد حارب امراء كييف شعوب بتشنجزويولوفتسى وغيرها من الجماعات والشعوب الرحالة . وكانت روسيا طوال تاريخها على اتصال مستمر مع شعوب آسيا فى ذلك الحين من التتاروالتركمان والاتراك والكرنميز. وقد ادى هذا الاتصال الى ظهور طابع اسيوى فى روسيا . وقال بليخانوف فى هذا الصدد : « اننا أوربيون أكثر من اللازم بالنسبة لاسيا ولكننا لسنا أوروبيين بما فيه الكفاية بالنسبة لاوربا » . واذا كانت هذه الملاحظةصحيحة بالنسبة للروس فان الصينيين بدورهم لم يتعرضوا لاى نفوذ قريب أو بعيد من عالم السلاف . وقد فرض القرن التاسع عشر عليهم بعض التغيرات الاجتماعية كما فرض عليهم الاخذ ببعض الاساليب العلمية الحديثة ولكنهم من الناحيتين الاخلاقية والنفسية ظلوا على حالهم دون تغيير .

وكانت العلاقات بين روسيا والصين متوترة منذ البداية فان مساحة روسيا وحدها ١٤ مليون ميل مربع وسكانها نحو مائتى مليون نسمة بينما الصين التى تضم نحو ستمائة مليون نسمة لا تتجاوز مساحتها عشرة ملايين ميل مربع .

وعدا ذلك ، فان سبيريا هى الارض البكر فى مناطق اسيا المزدحمة بالسكان سواء كانت اليابان أو الصين أو أندونيسيا او الهند أو الفلبيين أوسيام او الباكستان او بورما او الهند الصينية

وتزيد مساحة سبيريا على مساحه الصين بحوالى مليونى ميل مربع بينما لا يتجاوز عدد سكانها عشرين مليون نسمة . وثروات سبيريا المعدنية والزراعية لا ينضب معينها . ومناخ سبيريا مشابه لمناخ شمال الصين . وسبيريا بالنسبة لاسيا

المزدحمة بالسكان وللصين التى توشك ان تزدحم تعتبر منطقـــة حيوية بل وأرض الميعاد . وان الخطر الاصفر ان كان له وجــود سيخيف موسكو وليس العواصم الاوربية . والانانية الصـينية المقدرة سواء امتزجت بالايديولوجية الشيوعية أم لا لن تستطيع مواصلة التأمل والتفكير فى أن حفنة من الروس لا تزال تســتغل سيبريا جزئيا وحدها .

واذا حدث واندمج الاقتصـــاد الصينى فى الاقتصـــاد اليابانى فأصبحا متكاملين فقد تتجه الدولتان الى اكتشاف أرجاء سيبريا . وحتى لو ظلت الصين موالية لموسكو واعترفت بحقوق روسيا فى جميع ميادين حياتها الاقتصادية والسياسية فانها لن تستطيع فى النهاية الا أن تثير مسألة مستقبل سيبريا باسم التضامن الاسيوى وخاصة اذا أصبحت آسيا شيوعية . وتسطيع بكين أن تقترح اســتغلال سيبريا استغلالا مشتركا باسم الجماعة الاسيوية الشيوعيـــة . وهكذا ، فانه بفضل قوة الاحداث قد تسعى روســيا ببراعة الى التقارب من امريكا ، لان أمريكا قد تواجه خطرا قد يجعلها ضحية السيطرة الاسيوية نتيجة للضغط الصينى ـ اليـابانى شأنها فى ذلك شأن روسيا . وستفقد كل أمل فى الاحتفاظ بأسواقها الاسيوية او اســتعادتها مثلما ستضطر روســيا الى التخلى عن ســيطرتها الاقتصادية على سيبريا لو بقيت شريكة للصين الشــعبية . وقد تتعرض الولايات المتحدة لخطر الخروج أيضا من أسواق أفريقيـا وامريكا اللاتينية لو جردت من أسواقها فى أسيا وتعرضت للمنافسة من جانب الاقتصاد الصينى واليابانى الذى يحتمل أن يغرق الاسواق العالمية بالبضائع وقد يشهد المرء بعد ذلك الفقر النسبى للولايات المتحدة التى وقعت بين التوسع الاسيوى والانتعاش الاقتصادى الاوروبى . وقد تنزل أمريكا الى المستوى الذى وصلته بريطانيـــا العظمى فى نهاية الحرب الماضيـة .

ولتجنب هذا الموقف الخطير ، ستسعى واشنطن الى الســوق

الروسية وسيرى المرء بعد ذلك قيام تكتل امريكى – روسى فى وجه التكتل اليابانى – الصينى والى الحد الذى تتنازل فيه الايدولوجية الماركسية والتحرر الامريكى لمطالب اقتصاد البلدين ، فان روسيا والولايات المتحدة ستكتشفان مجتمعا تكنولوجيا يؤدى بعد ان يضع نصب عينيه تساوى سكان روسيا وامريكا الى تناسى الخلافات العميقة بين البلدين .

وعندئذ ستصبح روسيا والصين عدوتين لدودتين . وستدرك الدولتان ان التشابه الايديولوجى بينهما لا يكفى لتوفير الظروف الملائمة لامتزاجهما الاقتصادى او السياسى . وبنفس الطريقة ، قد تستطيع دولتان رأسماليتان حرتان – مثل امريكا وبريطانيا العظمى بينما تتمسكان بنفس المثل الاجتماعية – ان تتنافس بطريقة حرة دون أن ترفع كل منهما قبضتها فى وجه الاخرى .

ان التاريخ عبارة عن سياسة الماضى . ولكن يجب أن ينظر المرء لسياسه المستقبل باهتمام مماثل . ويجب على المرء لذلك أن يركز اضواء الحاضر على العشر أو العشرين سنة القادمة .

وكم من أوضاع سياسية ظهرت فى الماضى واطاحت بقواعد قائمة ؟ لقد وقعت المذابح بين البروستانت والكاثوليك فى الوقت الذى وقعت فيه اتفاقيات غير طبيعية بين الدول الكاثوليكية والبروتستانتية فقد تحالفت أكثر الامبراطوريات أوتوقراطيه فى العالم – وهى امبراطورية القيصر الكسندر الثانى فى روسيا مع الجمهورية الفرنسية التى كانت الطبقات الحاكمه فى روسيا آنذاك تحتقرها . وخلال حرب الانفصال ، وافق الرئيس لنكولن على قبول المعونة العسكرية والاقتصادية من روسيا القيصرية ، ووقف الاسطول الامبراطورى الروسى على مقربة من ساحل نيويورك لحماية الشمال الامريكى من الغارات البحرية التى قد يشنها الجنوب والامثلة عديدة فى هذه الناحية .

ان المسألة ليست مسألة تفاؤل أو تشاؤم تجاه موقف ما . وموقف

الصين والاتحاد السوفيتي يجب أن يفحص باستمرار فحصا موضوعيا وكذلك بحث الاسباب التى أدت الى تدهور هذا الموقف. وسوف يلاحظ المرء انه أمام موقف لم يسؤ بعد وانه يخضع لتطور الظروف .

والستار الحديدى ستار متحرك وهو يتحرك نحو سور الصين العظيم . والتجمع الاقتصادى والسياسى يحدث دائما فى كل زمان ومكان ، فنجد الحلفاء ينضمون الى أعدائهم الالداء والعكس بالعكس . وقد مر القرن الثامن عشر عند وقوع حرب السبع سنوات - بنفس هذه المرحلة التى كان فيها تبديل الاحلاف أمرا عاديا . وأما اليوم فقد كيف التصور السياسى نفسه مع تحولات الجغرافية السياسية . وقد اتسع نطاق المسرح . وظلت العناصر الاساسية على ما كانت عليه ، ولكن ما كان صالحا للتطبيق فى المستوى الاوروبى فقط أصبح كذلك أيضا بالنسبة للمستوى العالمى .

وليس فى استطاعة الصين وروسيا أن تغيرا مجرا الاحداث . ولن يقوم حكم صيني - سوفيتي مشترك على الكرة الارضية الا اذا نجحت الشيوعية فى غزو العالم غزوا سهلا سريعا واستطاعت اجتذاب جماهير لقارت لخمس. ولكن المشاركة فى الحكم بين موسكو وبكين لا يتوقع أحد أن تستفيد منها دول الديمقراطيات الشعبية التى هى مجرد حاجز واق للاتحاد السوفيتى . كما أن دول الحياد تبدو حذرة وغير ميالة لان تكون ذات نفع للقضية الشيوعية التى تفسرها الصين وروسيا دائما تفسيرا متباينا .

ويدرك زعماء الصين وروسيا ضرورة وقف النزاع فى تحالف لا يمكن أن يبقى الا فى ظروف معينة غير متوفرة حاليا . وكان لابد للثورتين من أن تتفقا فى الزمن والرأى . ولكن ذلك لم يحدث فان الثورة الروسية اندفعت الى الامام لاسباب عاطفية وأخرى اقتصادية . ولم تستطع الطبقات الاجتماعية فى روسيا أن تصل

الى نقطة التقاء . فقد كانت هذه الطبقات تقف ضد بعضها بسبب ما تشعر به كل منها تجاه الاخرى من حقد وخوف . وأدت القسوة فى الكلام الى قسوة حقيقية فى الاعمال . ولقد نبتت الثورة الروسية من ثمار الغضب . وقد ذبح ضحايا عام ١٩١٧ والاعوام التى تلته فى غمرة الغضب ، وكانت القسـوة وحب الانتقـام هى القاعدة السـائدة .

ولم يكن لينين وأتباعه بحاجة الى تشجيع الثوريين الذين كانوا يفوقونهم تطرفا بل وصل بهم الامر الى حـد لومهم على ضعفهم وترددهم .

أما الثورة الصينية ، فكانت على العكس ، حملة عسكرية فى الاصل . فقد واجهت الجماهير الصينية حقيقة واقعـة : وهى هزيمة المعسكر الوطنى . وكانت الثورة الروسية غامضة . وكان من الممكن أن تظل ديموقراطية ولكنها سلمت نفسها الى البلاشفة لحاجتها الى المتطرفين . أما الثورة الصينية فعبارة عن مقابله بين نظامين للحكم . وقد حازت القبول عن طريق الحكمة . وكان على الثورة الروسية أن تطيل عمرها عشرين عاما فى ظل لينين . ثم فى ظل ستالين من بعده ، وكانت تلتهم أبناءها التهاما . وفرض ستالين حكم الارهاب على أنصاره وغيرهم . ولكن ماوتسى تونج لم يتخل أبدا عن واحد من رفاقه . وقد تجنب عمليات التطهير داخل الحزب ويبدو ان الصين شاهدت ثورة بدون ثوريين — بالمعنى الارهـابى لهـذه الكلمة .

وقد استطاعت الثورة الصينية أن تنقل الصين الى عهد جديد وعالم جديد ووسائل جديدة . وكان العدو الحقيقى للشيوعيـة الصينية هو الحضارة القديمة المتلائمة مع الكونفوشـية والبوذية واذا استطاعت هذه الثورة المنقولة عن الماركسية والتى تمارسـها الكوميونات الصينية أن تصحح اقتصاديات البلاد . فان هذا لايعنى أنها سـوف تصبح بمثابة مذهب فلسفى يمكن فرضـه على العقلية الصينية . وتستطيع الصين — التى قيل نها شـبه

الاسفنج ولها ملكة الامتصاص والافراز – أن تحول الافكارالشيوعية تحويلا لا يمكن معه تمييزها وبحيث يتساءل المرء اذا كانت مثل هذه الافكار تمت الى الشيوعية بصلة .

ان أوجه الاختلاف بين الوضع الروسى والوضع الصينى أكثر من أوجه التشابه . ولا توجد فى الاتحاد السوفيتى معارضة حقيقية للشيوعية فيما عدا المعارضة التى تتزعمها الجماعة المناوئة للحزب والجماهير الروسية تبدو غير مكترثة بمستقبل الشيوعيه ولكنها لا تفعل شيئا للتخلص من ديكتاتوريتها . وفى الصين توجدجماعتان معارضتان : المعارضة التى شكلها أنصار تشيانج كاى شيك ومقرها فورموزا والمعارضة الغامضة التى تسود بعض القطاعات الصينية لاسباب متعددة .

وليس ثمة ما يمكن أن يقال عن حكومة فورموزا نظرا لان عدم شعبيتها ترغمها على الا تفعل شيئا . ويختلف الامر بالنسبة للمعارضة المجهولة . فهذه المعارضة تضم فى قارة الصين العناصر الشديدة الاختلاف فى المجتمع الصينى بما فى ذلك الشيوعيين . وترفض هذه المعارضة تعاليم وأوامر بكين كما ترفض الولاء لفورموزا . وأن ضخامة الصين تتيح لهؤلاء فرصة مناسبةللاجتماع واختيار أماكن عديدة للاتصال . وتدرك بكين وفورموزا وجود هذه المعارضة . كما تدرك موسكو ذلك . ولا يعتبر الكرملين هذه المعارضة عنصرا معاديا . فهو يعتبرها قوة صغيرة حاليا ومحايدة فى تفكيرها . وهى معارضة لحكومة بكين وليس لسياسة حسن الجوار أو التفاهم النسبى مع موسكو . ويجب أن يلاحظ أن هذه المعارضة لا تملك نظاما فعالا أو قاعدة للمناورة أو زعيما معروفا . وهى ليست مجمعا للنقاد أو هيئة سرية ذات صبغة أسيوية . وهى قوة خفية يصعب معرفتها . ولكن ما هى الاسباب التى يمكن أن ترغم مثل هذه المعارضة على تنظيم نفسها ومباشرة عملها ؟ .

يمكن أن يرى المرء الاستياء الناجم عن سوء المحاصيل اذا كان

هذا متتابعا ودائما . وفى هذه الحال ، يشترك الفلاحون فى ثورات ضد المسئولين فى الحزب .

وارتفاع نسبة المواليد قد تخل توازن النظام الاقتصادى الحالى . وازدياد عدد سكان المدن سيكون له نفس الاثر . ولكن الاسباب الاقتصادية أو المتعلقة بالجو لا تكفى لتفسير ثورة تقوم بها الجماهير أو فئات معينة من الجماهير فى الصين ضد حكومة بكين .

ومن الممكن قيام معارضة منظمة اذا انهمكت بكين فى عملية تقديم معونة كبيرة للدول المتخلفة . ولكن ما دامت الايديولوجية تسعى لتزويد الصين بكيان اقتصادى حيوى كما يحدث الآن فعلا فان المعارضين سيصفحون عن بعض مساوىء الحكومة . واذا كانت الدولة واقتصادها الضعيف سيستسلمان لمقتضيات ايديولوجية ترغب فى الانتشار جزافا فى أنحاء العالم فقد يقوم الفلاحون باضراب خفى . وسيجد الجيش الذى يتألف غالبا من ابناء الفلاحين صعوبة فى العمل ، وقد يتعرض لخطر التمرد بدلا من مهاجمة الشعب .

وفى هذه المرحلة يمكن أن تقدم المعارضة المجهولة زعماء للثورة . وهناك اختلاف كبير بين فرص قيام ثورة مضادة فى الصين وفى روسيا .

فان بكين تدرك مثل فورموزا وجود هذا الخطر الخفى . وان وجود معارضة منظمة ومستقلة عن فورموزا قد تحمل فى ثناياها انهيار حكومة فورموزا ذاتها ولن ينقذ تشيانج كاى شيك من الانهيار سوى المصالحة مع بكين . ولوقف هذه المعارضة عند حدها ، عمدت حكومة بكين الى تأمين نفسها وتدعيم مركزها عن طريق اقامة علاقات واتصالات مع العالم غير الشيوعى الى أقصى حد ممكن ، واتاحة الفرصة للصين لفرض نفوذها فى الشئون العالمية والمشكلات الدولية . وحكومة بكين تهدف من ذلك الى أنه ما دامت الثورة

تعمل على اعادة القوة والمجد للصينيين فانها تستحق تأييدا غير مشروط من جانب جماهير الشعب وصفوة رجاله .

وقد استطاعت الصين بفضل تدخلها فى الشرق الاوسط وجنوب آسيا وأفريقيا أن تسترعى اهتمام روسيا ، وهذا فى حد ذاته عمل استراتيجى . ولكن هذا التدخل أيضا عمل تكتيكى يهدف الى التأثير على الصينيين أنفسهم .

وقد دعم ماوتسى تونج مركز الثورة الصينية عند ما أعلن فى المؤتمر الثامن للحزب : « أننا سنؤيد الحركات التى تكافح فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من أجل حريتها » وفضل ليو شاوتشى الشيء نفسه عند ما ردد معنى عبارة ماوتسى تونج قائلا : « أننا نكافح الى جانب ضحايا الاستعمار العالمى » وقد يكون لهذه التصريحات بعض الاثر فى البلدان التى يعينها الامر كما كان لها تأثير على موسكو ومست مشاعر الشعب الصينى الذى يعلم من تاريخه فظاعة التدخل الاستعمارى وقد يكون هذا كله فى صالح حكومة بكين التى تهدف الى تشكيل جبهة صينية عامة ضد الاجانب الاقوياء .

وللاتحاد السوفيتى دول تابعة ، ولكن الصين تجنبت أن يكون لها دولة تابعة واحدة . والمعونة التى قدمتها الصين لكوريا الشمالية او فيتنام هى معونة مادية ، ويمارس زعماء كوريا الشمالية حقوقهم بدون أدنى اشراف من الصين . وهذا يعود الى أن آسيا تتابع باهتمام أعمال بكين وسلوكها حيال حلفائها فى آسيا وأن اتخاذ الصين لموقف صحيح يعتبر أساس نفوذها لدى دول آسيا . وتريد بكين بأى ثمن أن تتجنب اتهامها بالاستعمار الجديد وبذلك تبين أنها تختلف عن روسيا . ومن هذه الناحية اساءت حوادث التبت للصين بالرغم من اصرار شو اين لاى على اثبات أن التبت هى مسألة صينية داخلية .

وعند ما ادعت بكين زعامة الاحزاب الشيوعية فى آسيا فانهـا كانت تطالب بتأكيد حقيقة قائمة .

وكانت الاحزاب الشيوعية فى آسيا تتلقى دائما معونة مادية من بكين ؛ وظلت موسكو كعبة الشيوعية الدولية ، ولكن الاموال والاسلحة والتعليمات تأتى من بكين . وقد تدخلت الصين فى بورما علنا . ورحب الشيوعيون فى بورما بالفـدائيين الصينيين الذين دخلوا بورما بحجة وقف الغزوات التى تقوم بها قوات الصـين الوطنية المشتركة فى شمال بورما والتى تتلقى أوامرها من شيانج كاى شيك وفى الملايو ، أوجد الثوار الشيوعيون متـاعب خطيرة للانجليز . وفى الهنـد الصينية أوشك الشيوعيون على اثارةحرب عالميـة ثالثـة .

وقد استخدمت بكين هذه الحركات الشيوعية الاسيوية اداة مساومة فى مفاوضاتها مع الدول غير الشيوعية ، ولكنها لم تخدم سياسة التقارب مع دول جنوب شرق آسيا . وكان على الاحزاب الشيوعية وضع « فرملة » لنشاطها وجاء تشكيل حلف جنوب شرق آسيا بمثابة استئناف الغرب لسيطرته على المنطقه واشتراك الفليبين وسيام فى هذا الحلف كان تدعيما لصفوف الدول غـير الشيوعية . وكان لهذا الحلف تأثير فعال مع دول مثل أندونيسيا وبورما والهند ترتب عليه اضعاف موقف الحياد فى هـذه الدول ولوحظ حدوث تحول فى صالح الغرب .

ولم تكن فى استطاعة بكين فى ظل هذه الظروف أن تستمر فى الاحتفاظ برجال العصابات ونشر القلاقل والهياج فى منطقةجنوب شرق آسيا . فلم يعد لهذا العمل فائدة تذكر . وكان هذا التطور أقل ازعاجا للغرب منه لبكين التى لم تكن المظاهرات السلمية التى تقوم بها تتفق مع الحرب التى يقوم بها الشيوعيون فى الملايووبورما ولاوس . وقد أصبح شيوعو لاوس تحت سيطرة الصين وفيتنام ، وهم قوة احتياطية كبيرة ، وسيطرة بكين عليهم تتطلب تقـديرا

لمساعى حكومة الصين الحميدة من جانب الدول غير الشيوعية التى تخشى نشاط الاحزاب الشيوعية الداخلة .

ولم يكن هدف الحذر الصنى الاساءة الى حساسية الدول الاسيوية بل ان ديبلوماسية الصين تتخذ جميع الخطوات الممكنة لكسب ود الهند . والهند أكبر دولة آسيوية بعد الصين وهى ليست شيوعية . وهىبالنسبة للصينمثل الصينالوطنية بالنسبة لموسكو ـ جار كبير ينطوى ضعفه على فائدة كبرى .

وأن محاولة نشر الشيوعية فى الهند وحث الشيوعيين على القيام بحملة واسعة النطاق ، ومحاولة استغلال بؤس الجماهير الهندية من أجل جعل الهند دولة شيوعية كبرى كالصين قد يؤدى فى الوقت الحاضر الى قيام منافس خطير لبكين يستطيع أن يرشح نفسه لزعامة الجماهير الاسيوية . وما يحدث فى العلاقات بين بكين وموسكو قد يتكرر .

ويجب أن تكون هناك فترة انتظار ، كى يفعل الزمن والتآكل فعلهما وقد يطول هذا الانتظار طالما كان فى استطاعة نهرو وخلفاؤه أن يحفظوا التوازن بين العالم الرأسمالى والكتلة الشيوعية . وأن المنازعات التى حدثت داخل هذه الكتلة والاحتكاك بين موسكو وبكين قد ساعد الصين الى حد ما . ويبدو أن الصين أرادت أن تثبت بذلك لنهرو أن الكتلة الشيوعية أقل خطرا مما كان يظن .

أما بالنسبة لليابان ، فان التقارب مع الصين أمرمحتم وأن صبر وبراعة هاتين الدولتين كفيلان بتحقيق ذلك . وهناك حقيقة مشتركة بين البلدين وهى المجاعة . وتحاول اليابان بشدة مكافحة هذا العدو العام ولكن المواد الخام التى تستوردها تبتلع مكاسبها وفى ظل الظروف الراهنة وصلت السوق العالمية الى درجة من الاشباع نتيجة الفوضى الاقتصادية الغربية على العالم الرأسمالى والشلل الذى جاء به الستار الحديدى وستار الغابات الهندى .

وسيرتفع ستار « البامبو » الهندى فى يوم ، بفضل الرغبة المشتركة للصين واليابان اللتان تكملان بعضهما البعض .

ان المجاعة هى بارومیتر حكومة بكين . والخوف من انتشار المجاعة يحدد أعمال الشيوعية الصينية . وكانت المجاعة بالنسبة للحكومات السابقة ظاهرة طبيعية ، ولم يحاول أحد ان يهاجم الطبيعة . والهدف الاكبر للحكومة الشيوعية هو القضاء على المجاعة . وكان لتشيانج كاى شيك عذره فى عدم معالجة هذه الآفة بسبب الحروب الاهلية والتدخل الاجنبى . ولا تستطيع بكين أن تقدم مثل هذا العذر ولذلك فهناك سيف مسلط دائما على رؤوس حكام الصين . وقد تحدث كارثة وطنية فى اية لحظة تقضى على الحكومة فى وقت قصير جدا . ومن ثم تقع الثورة العاطفية التى لم تكن موجودة عند استيلاء شيوعية ماوتسى تونج على زمام الحكم وقد يعود غضب وانفعال الثوريين الروس فى عام ١٩١٧ الى الظهور من جديد فى الصين ويوجه فى هذه المرة ضد الشيوعية فى بكين .

ولم يخف هذا الاحتمال على الكرملين الذى يريد أن يحتاط لنفسه من رد الفعل الذى قد يترتب على كل ذلك والذى قد يؤثر على مركز حليفته الصين ومن المفهوم أن بعض الحكام فى الكرملين ينظرون الى الصين الشيوعية كتمثال كبير قاعدته من الطين .

ولاسباب عديدة مختلفة ، كانت الصين لغزا محيرا للمكتب السياسى فى موسكو . وهى توحى بالقلق وعدم الثقة بصورة أعمق مما يشعر به الغرب أمام سور الصين العظيم أو الستار الهندى . ولم يكن العشرين ألف روسى من الاخصائيين والفنيين والجنود يعرفون عن أسرار الصين بعد مغادرتهم لها فى جنيف عام ١٩٦٠ أكثر من بعض الديبلوماسيين الانجليز .

وتعتبر الكتلة الصينية الروسية حاليا مزيجا من المشاركة والنزاع فهى فى ازمة ، واذا كان على الاتحاد السوفيتى ان يوافق

غدا – بدون تقديم شروط – على تبعيته الايديولوجية السياسية للصين ، فان الكتلة ستزداد قوة ومن ناحية اخرى ، فاذا تخلت الصين عن طموحها في التفوق الايديولوجي فستتعرض لعدة منازعات داخلية وسيظهر الشيوعيون المتحمسون من الوطنيين من انصار العهد الماضي .

ويبقى أمامنا بعد ذلك الحل الحالي وهو تعايش الصين وروسيا في المعسكر الشيوعي . وهذا شرط بسيط على ضوء الوضع الايديولوجي . وهذا هو السبيل الوحيد لانكار انتصار الشيوعية في الايام السعيدة المقبلة .

وفي العالم اليوم حيث المشاكل الاقتصادية تبدو بارزة والتقدم يفرض ديكتاتوريته فمن الممكن أن يعيش النظام السوفيتي بالاشتراك في النشاط الرأسمالي .

ولم يتوقف خروشوف عن فعل ذلك سواء عن معرفة أم لا ، فقد تخلى خروشوف عن العزلة التي فرضها ستالين وراح يقلد امريكا في كافة النواحي .

وباتباع الوحي من حجج لأمريكا الراسمالية ، فقد اصبح الكرملين في ظل خروشوف وميكويان وغيرهما معتادا على النغمة الامريكية . ويتبنى شعارات وأساليب العمل والفكر الامريكي فقد أعطى الروس الاولوية للناحية الفنية العملية والانتاج وتشمل هذه الاولوية كافة جوانب الحياة الروسية بما فيها الناحية الايديولوجية التي يجب ان تخضع لاهداف الزعماء الروس المهتمين بالعلوم الذين أصبحوا حكام الكرملين . وقد تنجح خطة السنوات السبع وتتيح للسوفييت اللحاق بالغرب وأمجاده . وفي هذه الحال وبدون أن تصبح روسيا راسمالية سيكون الاتحاد السوفيتي قد عقد اتصالات كافية مع النظام الغربي وتبنى منه أفكارا كافية تنتهي بأن يصبح مماثلا له . وقد يتنبأ المرء بأن الغرب سيعمد لمحاربة

الروس بنفس أسلحتهم لمواجهة منافستهم الاقتصادية . وقــد يتبنى بعض الاجراءات القاسية المتبعة فى روسيا وقد يؤدى هـذا الى فرض نظام خاص فى بعض النواحى المضطربة فى رأسمالية الوقت الحاضر .

وبهذه الطريقة سيتم بعض النماذج كى تذوب راسمالية الدولة فى روسيا والرأسمالية الغربية الحرة معا . ولن تخسر الراسمالية العملية شيئا فى هذه الحال . وستواجه الشيوعية المثالية نهايتها .. وقد يكون هذا صحيحا بالنسبة لروسيا ، ولكن ماذا بشــأن الشوعية الصينية ؟

واذا ارادت الصين بعد خيـــانة السوفييت ان تسعى الى المصالحة مع فورموزا وايجاد الوسائل اللازمة للاتحاد مع اليابان فان الشيوعية الصينية ستجد طريقة معقولة للامتثال لتجــربة جديدة لايهم معرفة اسمها كثيرا .

وسيكون فى استطاعته الذكاء الصينى الايحاء بعقد ارتبـاطات مناسبة جدا ولن يكون امام بكين سوى اعادة بعض الامتيـــازات للقطاع الراسمالى فى الاقتصاد الصينى الحالى وتخفيف القواعد التى تهيمن على القطاع التابع للدولة . وسيصبح ماوتسى تونـج بعد انضمامه الى صفوف الفلاسفة قديسا لا يناوىء أحدا .

وحكام الصين ــ مثل حكام روسيا ــ بما لديهم من معتقدات ايديولوجية مهما كانت عاطفية ــ فانهم ملزمون بالحفاظ عــلى شــعوبهم . وينتهى الامر بالطرفين الى الاستسلام الى حتميــة الجبرية الصحيحة التى تتحكم حتى فى الاحداث التاريخية الشاذة وهى الواقعية السياسية .

هيئة قنـاة السـويس

أثر قناة السويس فى الاقتصاد العالمى

تختصر قناة السويس طريق البواخر بين الشرق والغرب ، اذ تجنبها الدوران حول رأس الرجاء الصالح فتقتصد بذلك بين ١٧٪ و ٥٩٪ من المسافة بين مختلف القـارات ، كما انها تحقق وفرا فى الوقـود تتراوح نسبته بين ٥٠ ٪ و ٧٠ ٪ تبعا لحمولة السفينة وسرعة سيرها .

ان حركة البضائع عبر قنـاة السـويس خير مقياس لتطور اقتصـاديات البلاد وخاصـة الاوربية منها . فكلما ازداد حجم البضائع العابرة وكلما نشطت حركه الملاحه فى القناة، ازدهرت الاسواق وراجت التجارة العالمية أما اذا هبطت حركة الملاحة فى القناة لسبب من الاسباب أو تعطلت كلية كما حدث ذلك اثر العدوان الثلاثى فى مطلع نوفمبر ١٩٥٦ ، فانه ينتـج عن ذلك اضـطرابات عنيفة تزعزع اقتصاديات بلدان العالم ويترتب عليها أوخم العواقب .

وان نظرة واحدة الى ما انتاب أوروبا والشرق الاقصى من أزمات خلال فترة تعطل الملاحة فى القناة أثر العدوان لجديرة بابراز الدور العظيم الذى يلعبه هذا المرفق على مسرح الاقتصاد العالمى

هيئة قناة السـويس

الكـراكة تحتمس

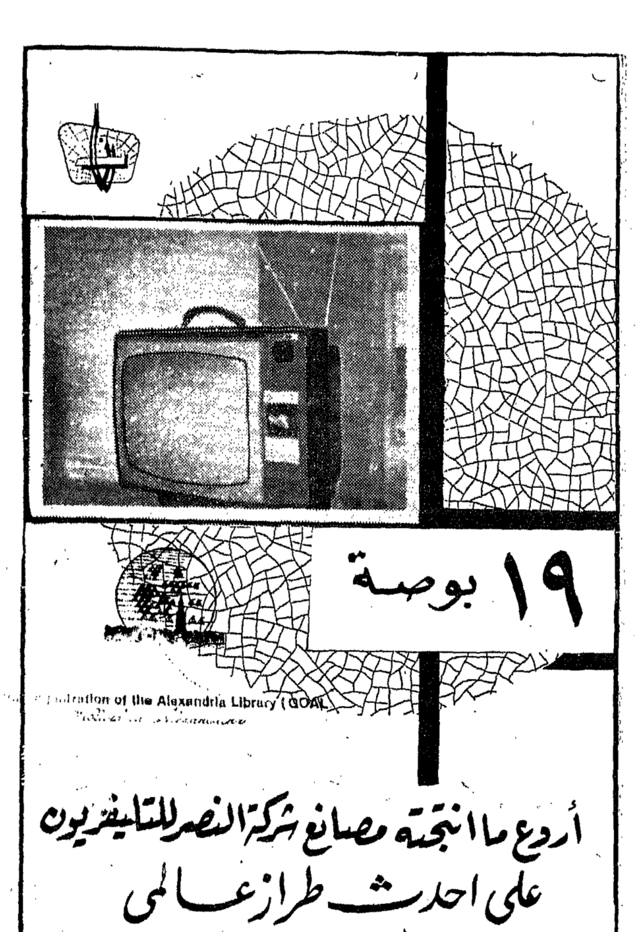
الـكراكة « تحتمس » هى احدى الوحـدات العائمة التى تستخدمها هيئه قناة السويس فى عمليات صيانه وتوسـيع وتعميق القناة وقد صنعت هذه الكراكة بمصـانع سكيدام فى هولندا ، وبلغت تكاليف صنعها أكثر من مليون جنيه ·

ويبلغ طولها ٧٨ متراوعرضها ١٣ر٥ متر وغاطسها مترين و٦٠ سنتيمترا ، أما قوة محركاتهـا فتصل الى ٤٤٥ حصانا منها ٣٣٠ حصانا لطلمبة الكسح وحدها· وتستطيع هذه الكراكه تحطيم الصخور وتفتيت الاحجـار ثم امتصاص الاتربة بمعدل ١٦٠٠ متر مكعب فى الساعة الواحـدة وقذفها الى مسافة بعيدة ·

ويتألف جهاز التحطيم الخاص بها من عجله ضخمه ذات أسلحة حادة، قطرها ثلاثة أمتار وسمكها ١٨٠ سم ، تدور بسرعة تتراوح بين ١٠ ، ٣٠ دورة فى الدقيقة بمحرك قوته ٥٠٠ حصـان ، فتطحن الارض طحنا ثم تجمـع الارض المطحـونة أمام فوهـة ماسورة الشفط التى تبلغ قطرها ٨٥ سنتيمترا ·

وتقذف الـكراكة الاتربه على الضفه بواسطه مواسير يبلغ قطر الواحـدة منهـا ٧٥ سم وتلك المواسير نوعان : نوع عائم على سطح الماء وقد يصـل طوله الى ١٢٠٠ متر ، ونوع يمتـد عـلى اليابسة وقد يبلغ طوله ١٤٠٠ متر · ويعنى هـذا ان الكراكة تقذف الاتربه الى مسافة ٢٦٠٠ متر من مركز عملها ·

وكانت هذه الكراكة قد أغرقت فى أثناء الاعتداء الثـلاثى على القناة وتم انتشـالها وأجـرى اصـلاحها فى ورش الهيئـة العمومية ببورفؤاد بأيدى العمال واشراف المهندسين العرب .



١٩ بوصة
أروع ما انتجته مصانع شركة النصر للتليفزيون
على احدث طراز عالمى

فهـــرس

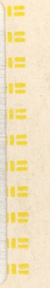


١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

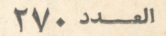
٢١



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥







العـــدد ٢٧٠